ثقافة العُري أو عُري الثقافة



الدكتور غلام علي حداد عادل

ترجمة:
عبد الرحمن العلوي

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

ثقافة العُري

أو

عُري الثقافة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

ثقافة العُري
أو
عُري الثقافة

تأليف

الدكتور غلام علي حداد عادل

ترجمة

عبد الرحمن العلوي



﴿... ولباس التقوىٰ ذلك خير...﴾
(سورة الأعراف، الآية ٢٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إرتداء اللباس، شأن من الشؤون الإنسانية وظاهرة قديمة بقدم التاريخ البشري، وممتدة بامتداد جغرافية الأرض الراهنة. وهذه الظاهرة ذات صلة بمختلف الخصائص الفردية والاجتماعية للإنسان، ويمكن دراستها من زوايا مختلفة كعلم النفس، والأخلاق، والاقتصاد، وعلم الاجتماع، والدين، والقانون، والتاريخ، والجغرافيا، ويمكن البحث عن إجابات على الأسئلة التالية:

لماذا يرتدي الإنسان اللباس؟

ما هي العلاقة بين نوع اللباس والخصائص النفسية للإنسان؟

ما هي العلاقة بين الوضع المالي للإنسان ومستواه الاقتصادي وبين نوع اللباس الذي يرتديه؟

ما هي الألبسة التي ترتديها مختلف الطبقات الاجتماعية في مجتمع ما؟

ماذا قالت الأديان في اللباس والزي؟

ما هي القوانين التي شُرِّعت على الصعيد المدني في لباس الناس وزيّهم؟

ما هي التحولات التي شهدها الزي طوال التاريخ وعلىٰ مستوىٰ كافة الامم، وما هي العوامل التي أدت الىٰ ذلك؟

ما هي التباينات الملاحظة بين ألبسة الناس في مختلف بقاع الكرة الأرضية وفي مختلف الأوضاع البيئية؟

من الواضح انّ الاجابة علىٰ هذه التساؤلات وغيرها من الأسئلة، بحاجة الىٰ دراسات مفصلة وفرص أوسع. وللباحثين في مختلف الاختصاصات بحوث ودراسات كثيرة وكتب عديدة بهذا الشأن.

ويتّضح من تلك البحوث والدراسات انّ اللباس يلبّي ثلاث حاجات للإنسان علىٰ أقل تقدير وهي: يقيه من البرد والحر والمطر والثلج، ويساعده علىٰ صيانة عفافه وحشمته، ويضفي عليه الزينة والجمال والوقار.

ويمكن تشبيه اللباس بالسكن من إحدى الزوايا. صحيح ان الإنسان ينبري لتشييد البيت كي يتقي البرد والحر والحيوانات، إلّا انّ البيت يُعدّ فضلاً عن ذلك مأمن الإنسان ومأواه الذي يسكن اليه ويودع فيه ماله، وينظّم أوضاعه وشؤونه الخاصة. ليس هذا فحسب، وانما بيت كل شخص بمثابة الجو الذي يمكنه أنْ يمارس فيه ذوقه ورغباته الخاصة ضمن حدود إمكاناته، وإشباع غريزة حب الجمال. اللباس يمكن أن نعبّر عنه بـ«البيت» او بعبارة أصحّ بـ«البيت الاول»

لكل شخص. وهو بالنسبة للإنسان البيت الأخصّ، لأنه يسكن فيه أولاً قبل ان يسكن في الدار. ولهذا نحمل جميعاً بهذه الخاصية بيوتنا علىٰ أكتافنا.

العامل الأساس وراء ظهور اللباس ـ وكما قلنا ـ كان الحفاظ على الجسم، والعفّة، والجمال. ومن الخطأ أنْ نعزو الاختلاف والتنوع في الأزياء بين مختلف المجتمعات والأُمم الىٰ هذه العوامل الثلاثة. ولو ألقينا نظرة علىٰ مختلف الطبقات في مجتمع ما، لرأينا وجود تباين في زي النساء والرجال والاطفال، فضلاً عن وجود اختلاف واضح بين زي ابن المدينة وابن الريف. وهناك تفاوت في المدينة بين زي ربة البيت وزي المرأة الموظفة، ويرتدي اصحاب المهن المختلفة من الألبسة ما يتناسب مع مهنة كل منهم. وللطبقات المختلفة أزياء وألبسة مختلفة ايضاً بما ينسجم مع الوضع الاقتصادي لكل طبقة ومواردها المالية. كما أنّ الظروف البيئية لكل منطقة ذات تأثير واضح علىٰ ما لأهلها من زيّ ولباس. وللأديان تعاليم خاصة بالألبسة، مثلما هو الحال في الإسلام، حيث نجد فيه قواعد وأوامر فيما يتعلق بستر الجسم، و«الحجاب» الذي يصطلح عليه مجتمعنا المعاصر، انما هو تعبير عن نوع الزي الإسلامي.

ورغم اهتمامنا في هذا الكتيب بتأثير مختلف العوامل علىٰ شكل اللباس وحجمه ونوعه، غير اننا لا نبغي دراسة هذه التأثيرات، ولا نهدف ايضاً الىٰ بحث طبيعة اللباس وحدوده من وجهة نظر الشريعة

الإسلامية[١]. وما نريد أن نركز عليه هو «العلاقة بين الزي والثقافة»، ونؤكّد هنا انّ اعتمادنا على العلاقة بين اللباس او الزي والثقافة، لا يعني تجاهلنا او عدم ايماننا بالعلاقة بين اللباس والعوامل العديدة الاخرىٰ. واذا تحاشينا الحديث في هذه الدراسة عن سائر تلك العوامل والمؤثرات، فذلك لاعتقادنا بأنّ علاقة الثقافة والزي، توازي علاقة الزي مع سائر العوامل الاجتماعية، والاقليمية، والاقتصادية، والتاريخية. بعبارة اخرىٰ نحن نرىٰ انّ تأثير الثقافة على الزيّ أهمّ من سائر المؤثرات الاخرىٰ ولا يمكن ان نبحثها في مستوىٰ واحد معها. ونؤمن بأنّ كافة التغييرات التي تطرأ على الألبسة والأزياء بسبب العوامل غير الثقافية، انما هي متأثرة بعلاقة الزي والثقافة، وواقعة ضمن الدائرة الثقافية.

العلاقة بين الزي والثقافة

كلنا يعرف معنى الزي، ولا يحتاج الأمر الىٰ تعريفه، اما الثقافة فلابد من تقديم تعريف لها. فالثقافة من وجهة نظرنا وبتعريفنا عبارة عن الرؤية العامة الشاملة التي ينظر مجتمع ما من خلالها الى العالم. وهذه الرؤية أو النظرة هي نفس ذلك المعنى الذي يحمله ذلك

---

١ ـ تناول الاستاذ الشهيد مرتضى المطهري ذلك في كتاب «قضية الحجاب». وله دراسات مفيدة حول الحجاب وكافة القضايا التي تدور حوله استعرضها من الزاويتين الأخلاقية والاجتماعية، ويمكن ان نجد مثل هذه الدراسات في الكتاب السابق وفي كتابين آخرين له هما «نظام حقوق المرأة في الاسلام» و«الأخلاق الجنسية في الإسلام وعالم الغرب».

المجتمع للوجود والإنسان، وهي من الاتساع والامتداد بحيث تستوعب كافة القيم والأساليب الفردية والاجتماعية. وعبّرنا في هذه الدراسة عن «الرؤية الى العالم» بالثقافة ومرادفاتها أحياناً، بهدف مزيد من التوضيح.

نحن نرى أنّ «الرؤية الى العالم» عند كل أُمة من الأُمم، لها آثار شديدة على شكل وطبيعة الكثير من الجوانب المحسوسة والملموسة لتلك الامة. والعالم الذي يصنعه الناس ويعيشون فيه، واقع تحت تأثير رؤية هؤلاء للعالم والكون بشكل كبير. ويعتمد اسلوب المجتمعات في تشييد المدن، والبيوت، والأزياء وغيرها، علىٰ رؤيتها للوجود وفهمها للحياة، والقيم التي تعتقد انها تهيمن على الكون. بعبارة اخرىٰ ثقافة كل أُمة تتجلىٰ في أشكال وصور مختلفة كالصناعة، والاقتصاد، والادارة، وتشييد المدن، والهندسة المعمارية، والفن، وهي بمثابة الروح التي تسري في جسم مدنية تلك الأمة. كما انّ كل شكل من هذه الأشكال عبارة عن مرآة لو تمعّنّا فيها جيداً، لرأينا صورة تلك الروح المهيمنة وتلك الثقافة العامة التي عليها تلك الأمة. العلاقة بين الزي والثقافة، علاقة رصينة بحيث يُعَدّ الزي هو العلامة الاولى التي يميّز بها الناس الشخص الغريب الوافد علىٰ بلدتهم. ويبدو انّ الناس يتحدث بعضهم الى البعض الآخر عن طريق الزي واللباس، ويقدّم كل منهم نفسه بلغة زيّه: مَن أنا؟ مِن أين أتيت؟ ومِن أي بلد وثقافة؟

لا شك انّ التفاوت بين ثياب مختلف المجتمعات ناجم عن ثقافة

المجتمع ورؤيته الى الكون، بغضّ النظر عن تأثير الخصائص الجغرافية والبيئية، والعوامل الاجتماعية، والاقتصادية، والمهنية، والسنيّة. فالتباين في الزيّ يعتمد علىٰ طبيعة فهم الإنسان للكون، ونظرته الىٰ ذاته، والمصير الذي يتصوره لنفسه، والأشياء التي يرىٰ فيها سعادته. وصفوة الدراسة التي نحن بصددها هي: لو أن مجتمعاً مثل المجتمعات الغربية الراهنة، صمت فيها الدين إزاء الزي ونوع الملبس، كما انّ المصالح الاجتماعية لم تقنّن قانوناً يحدّد حجم اللباس وشكله، فهذا لا يعني بأي حال من الأحوال عدم وجود قاعدة أو معيار يوضح طبيعة زيّ الناس ولباسهم، كما لا يعني عدم وجود مبررات ما دفعت الناس لارتداء هذا النوع من اللباس لا نوع آخر، ولا يعني ايضاً انّ نوع اللباس وطبيعة الزي والتغييرات التي طرأت عليه، قضايا قد تلاعبت فيها الصدفة وخضعت لأذواق الناس لا غير. فنحن بالأساس لا نؤمن بوجود ظاهرة في هذا الكون مادية او اجتماعية او معنوية ظهرت الى الوجود بدون علّة وعن طريق الصدفة. ومن هنا نؤمن إذا كان الدين او القانون لم يحدّد نوع اللباس في المجتمعات الغربية، فلا يجب أن يداخلنا تصور في انّ الناس أحرار في انتخاب اللباس واختيار الزي، او أن زيّهم لا يخضع لمعيار او ميزان ما، او عدم هيمنة رؤية معيّنة عليه. فزي المرء يخضع لثقافة المجتمع قبل أي شيء آخر، ثمّ لذوقه الشخصي. والمجتمع الغربي المعاصر يتحدث الينا باللباس الذي يرتديه، ولو أنصتنا لهذا الحديث لسمعنا فلسفة الغرب وثقافته.

إثبات الفكرة

يجب إثبات هذه الفكرة. أية فكرة؟ الفكرة السابقة التي قلنا فيها بأنّ الزي الرجالي والنسائي في كل مجتمع، يخضع بشكل قوي لرؤية ذلك المجتمع الى الكون، والقيم المهيمنة عليه، بل انه مرآة تكشف عن تلك الرؤية، هذا فضلاً عن تأثير عوامل اخرىٰ كالظروف الاقتصادية والاجتماعية والبيئية.

ولاثبات هذا الكلام، لابد من إلقاء نظرة فيما حولنا، علىٰ أنْ تستوعب هذه النظرة جزءين من هذا العالم: الأوّل: العالم المادي الغربي والذي يميزه العلم والتكنولوجيا والاستعمار، والثاني: العالم الذي ورث الثقافات والحضارات القديمة، وتعرض للغزو الثقافي الغربي، وفقد ثقته بنفسه أمام الثقافة الغربية، ويسير نحو التضحية بكافة ما لديه من تراث معنوي تحت اقدام الحضارة الغربية. وتعدّ البلاد الإسلامية، والهند، وبقاع واسعة من أفريقيا، وجنوب شرق آسيا، وسكان امريكا الأصليون، جزءاً من هذا العالم. ولابد لنا هنا من إلقاء نظرة سريعة علىٰ زيّ تلك الشعوب التي لم تتأثر حتى اليوم بشكل كامل بالغرب. ونبدأ من ايران التي هي أقرب الينا ونحن أقرب اليها، ونتفحّص زيّ القرويين الايرانيين، ومختلف العشائر والقبائل الايرانية، والاكراد، والبلوج، والبختيارية، والقشقائية، والنساء اللائي بقين بمنأىٰ عن الغزو الثقافي الغربي، وعلماء الدين، وغيرهم، فهل هناك مشتركات بين أزياء كافة هذه الفئات الايرانية، رغم التباين في شكل هذه الأزياء ولونها ونمطها وقياساتها؟

كذلك ماذا نرىٰ لو ألقينا نظرة على البلاد المجاورة لنا؛ زيّ البلاد العربية، والزي التقليدي النسائي والرجالي في الهند والباكستان، وأفغانستان، وقبائل اليمن، والمغرب، وأفريقيا؟ فهل هناك مشتركات بين هذه الأزياء والألبسة؟ وهل هناك أوجه من التشابه بينها وبين انواع الالبسة في بلدنا؟

ولاشك انّ الإجابة علىٰ هذه الأسئلة ايجابية. وقد عرضنا في هذا الكتيب بعض أشكال الأزياء التقليدية والوطنية لبعض الامم والشعوب التي لم تقع بشكل كامل حتى اليوم تحت نفوذ الثقافة الغربية. ويمكن أنْ نستشفّ من خلال إلقاء نظرة عليها انّ أوجه الاشتراك بينها عبارة عن انها جميعاً طويلة، فضفاضة، غير ملتصقة بالجسم، وعموماً مع عصابة للرأس، وقبعة، وعمامة. ومما لاشك فيه انّ هناك الكثير من الاختلافات ايضاً وتتمثل في نوع القماش، ولونه، وطريقة الخياطة، وعدد قطع الزي الكامل، والعديد من المواصفات والميزات الاخرىٰ. ورغم كافة هذه التباينات التي هي خاضعة بالأساس للظروف والاوضاع الاقليمية والاجتماعية والاقتصادية، يبرز ذلك الوجه المشترك الذي أشرنا اليه ويجلب نظر المتفحص. ويمكن إكمال هذا المسار الجغرافي من خلال استقراء تأريخي. فلو دخلنا الىٰ متاحف الأزياء في البلدان الاوربية، لشاهدنا أنّ أزياء الشعوب الاوربية التي عاشت في القرون الوسطىٰ وحتىٰ فيما بعدها ـ نساءً ورجالاً ـ شبيهة بشكل عام بأزياء الشعوب الراهنة التي لم تتأثر كثيراً بالزي الغربي الحديث، من حيث كونها فضفاضة وطويلة.



١ ـ زي رجل حبشي



٢ ـ امرأة من أفريقيا الغربية



٣ ـ الهنود الحمر في قارة أمريكا



٤ ـ امرأة ورجل من أرمينيا

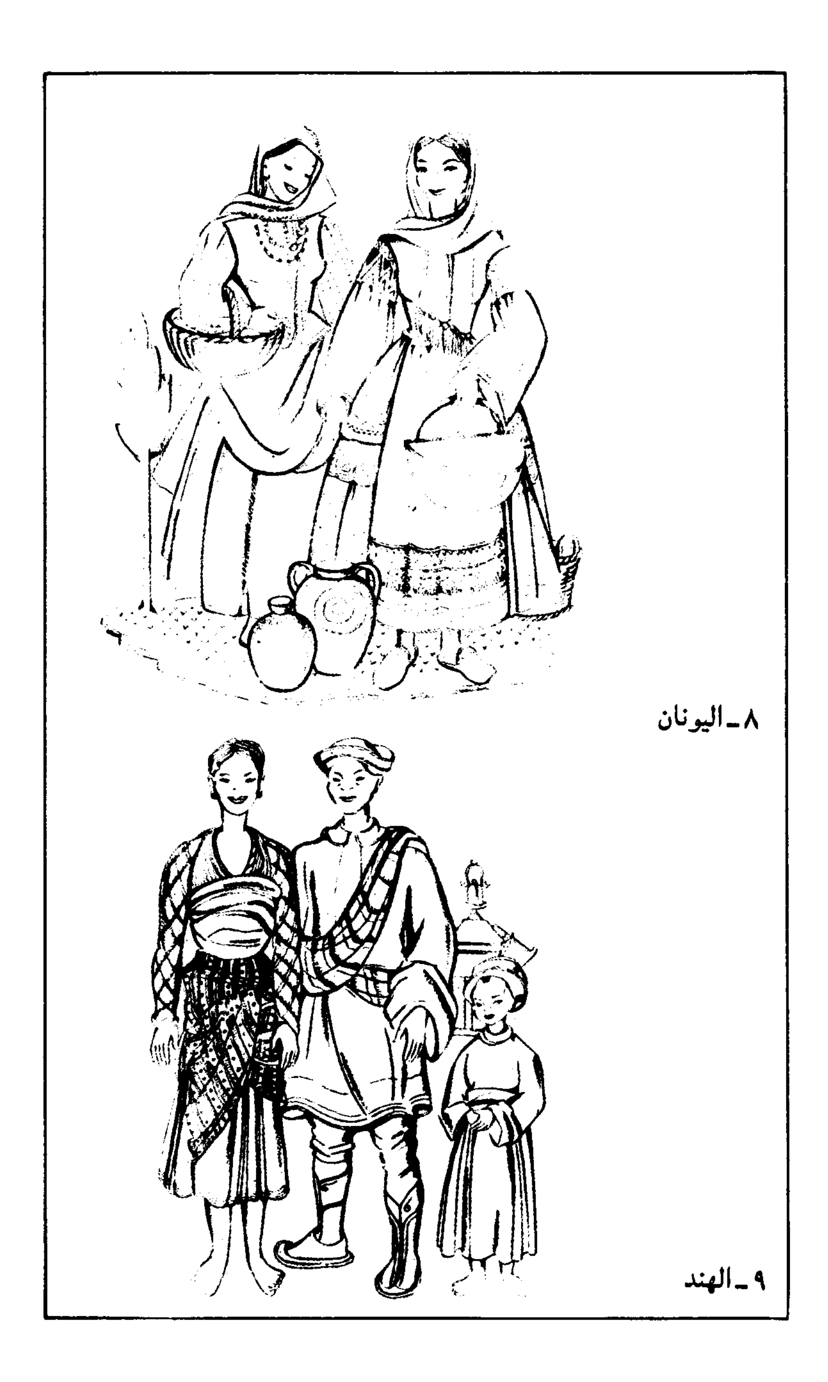
٥ ـ زي امراة صينية



٦ ـ تشيكوسلوفاكيا



٧ ـ الأكوادور


٨ ـ اليونان
٩ ـ الهند



١٠ ـ امرأة كردية

١١ ـ بولندا



١٢ ـ ايران



١٣ ـ نماذج من الزي الكردي



١٤ ـ نموذج من الزي الايراني التقليدي



١٥ ـ نموذج من الزي الايراني التقليدي. (إلى اليسار تشاهد اولى نماذج محاكاة الزي الاوربي)



١٦ -زي نساء الصين في القرن التاسع عشر



١٧ ـ الزي النسوي والرجالي في الصين



١٨ ـ نساء ورجال من السنغال في أفريقيا



١٩ ـ نساء ورجال من بوليفيا وبيرو



٢٠ ـ نساء من الهنود الحمر في أمريكا الشمالية

ولو راجعنا البحوث والدراسات الخاصة بالزي الايراني في عـهد ما قبل الإسلام، لرأيناها خاضعة لهـذه القـاعدة ايـضاً؛ فـالتماثيل، والنقوش، والصور التي تعود لتلك المرحـلة تـؤكد عـلىٰ انّ لبـاس الايرانيين رجالاً ونساءً كان طويلاً وعريضاً.

فكما نشاهد في الشكـلين اللـذين يـصوّران الزي النسـوي فـي العهدين الأخميني والأشكاني، حيث تضع المرأة التشـادر (العـباءة) علىٰ رأسها وترتدي الثوب الطويل الذي يصل الى الكاحل.

وماذا نرىٰ لو ألقينا نظرة على البلدان الاوربية والمـدن العـالمية المتأثرة بالغرب؟ سنجد تنوع الألبسـة وتـباين الأزيـاء، ولاسـيما تغيرها السريع في بداية كل فصل من السنة. كما سنجد وجهاً مشتركاً ايضاً بين هذه الألبسة والأزياء سواء بـين النسـاء أو بـين الرجـال، ويتمثل في ضيقها، وقصرها، والتصاقها بالجسم. وهو مـا يـعاكس بالضبط مواصفات الألبسة المحلية والتقليدية للامم التي لم تـخضع لهيمنة الغرب وثقافته بشكل كامل.

فما هو السبب؟ لماذا يظهر الإنسان غير الغربي في المجتمع بثوب طويل فضفاض، والإنسان الغربي بزي ضيق قصير بشكل عام؟ وفي كثير من الحالات وحينما نسأل لماذا كان الشرقيون هكذا والغربيون بهذا الشكل في هذا اليوم، يختم المستمعون على أفواهنا بختم رسمي موحّد، ويجيبون على الفور بأنّ سبب هذا الاختلاف هو انّ الشرق القديم لم يكن لديه علم وصناعة متطورة، في حين يمتلك الغرب هذا العلم والصناعة المتطورة في يومنا هذا. وإذا سألنا لماذا كـان الفـن

المعماري الشرقي والحياة المدنية والقروية الشرقية، والطب الشرقي، وفن الري الشرقي بذلك الشكل، ولماذا هو في الغرب بهذا الشكل، لقيل لنا ان التكنولوجيا والعلم الجديد يكمنان وراء هذا التباين والاختلاف، وهي موهبة يمتلكها الغرب في عصرنا الراهن، وكان يفتقدها الشرق في الماضي. وهذا الجواب يبدو مقنعاً او مفحماً على الاقل في كثير من الأحيان.

أما لو سألنا لماذا كان الناس يرتدون قديماً الألبسة الفضفاضة الطويلة عادة، في حين يرتدي الاوربيون والأمريكان الألبسة الضيقة القصيرة في هذا اليوم، فهل بامكان أحد أن يجيب بأنّ هذا التباين يعود للتخلف العلمي والصناعي الشرقي والرقيّ الغربي علىٰ هذا الصعيد؟ وهل انّ خياطة الثوب الضيق، بحاجة الى العلم الجديد والتكنولوجيا الغربية المتطورة، ولهذا كان لباس الشعوب غير الغربية عريضاً وفضفاضاً في الماضي والحاضر؟ ولو أنعمنا النظر، لرأينا انّ قضية الزي واللباس، هي إحدى القضايا التي لا يمكن حلها من خلال الاجابة الروتينية: التطور العلمي والتكنولوجي الغربي، والتخلف الشرقي. فخياطة الألبسة الضيّقة ليس بالأمر الذي كان يصعب القيام به قبل ألف عام، كما انه ليس صعباً في هذا اليوم. صحيح انّ ماكنة الخياطة قد اختُرعت قبل مائة وخمسين عاماً، غير انّ هذه الماكنة لم تُحدث تحولاً مهماً في فنّ الخياطة، واقتصر انجازها على الاسراع في خياطة اللباس. ولو قارنا بين الأزياء المتداولة قبل ألف عام وبين ما هي عليه اليوم، فلن نجد تغييراً مهماً

طرأ عليها من حيث فن الخياطة. وربما يمكن أنْ نقول بأنّ فن الخياطة، هو أحد الفنون التي طوت مسارها التكاملي خلال الزمن القديم، ولم يترك العلم والتكنولوجيا تأثيراً ذا بال عليها، بحيث يمكن للخياط المعاصر أن يخيط ملابس عجز عن خياطتها الخياط القديم. أضف الىٰ ذلك، لو افترضنا تخلف القدماء ـ وبأي حدّ كان ـ عن المعايير الغربية الراهنة إلّا انهم كانوا يدركون هذا الحد ولا شك وهو انهم لو خاطوا سروالاً ضيّقاً وثوباً قصيراً، لوفّروا على أنفسهم بعض المال. ولهذا لا يمكن أنْ يُقال بأنّ هذا التباين في شكل اللباس ناجم عن التطور الغربي والتخلف الشرقي، كما لا يمكن أن يُقال بأنّ الشرقيين لو كانوا يستطيعون، لخاطوا لأنفسهم ألبسة مثل الألبسة الغربية المعاصرة. كلا، فالشرق كان بامكانه ويمكنه ايضاً أن يخيط الألبسة الضيقة القصيرة، إلّا انه لم يقم بذلك، واختار خياطة اللباس الطويل الفضفاض، والعصابة والعمامة رغم انّ ذلك ليس في صالحه اقتصادياً. والأهم من ذلك كله، أنّ الغرب المعاصر ورغم قدرته على خياطة وارتداء الزيّ الشرقي، إلّا انه لم يفعل ذلك، واختار الأزياء الضيقة الملتصقة بالجسم.

والآن وقد علمنا انّ التفاوت في شكل أزياء الحضارتين الشرقية والغربية لم يكن بسبب الجهل والتخلف، فلابد أن نبحث عن مصدره في موضع آخر. فما هو سبب ذلك التفاوت؟ ولو قارنّا بين الأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية، والجغرافية للمناطق التي كان ولا زال سكانها يرتدون الازياء الطويلة العريضة، وبين اوضاع الحضارة

الغربية، لرأينا أنّ أياً من هذه العوامل لم تكن سبباً في هذا التفاوت والاختلاف. ولا يمكن ان يُقال بأنّ الإنسان القديم لم يكن يعمل، في حين أنّ العمل هو الذي دفع الإنسان الغربي الحديث لانتخاب مثل هذا الزي. كما لا يصح أنْ يُقال بأن المناخ كان بارداً في الزمن القديم وأصبح حاراً في وقتنا الراهن. وكذلك ليس من المنطقي القول بأنّ القماش كان رخيصاً ومتوفراً قديماً، ويعود قصر الأثواب والفساتين في يومنا هذا الىٰ قلّة القماش وارتفاع أسعاره. هذه أعذار وتبريرات أقرب الى المزاح منها الى الجد. ولهذا لابد من القول بأنّ الرؤية الى العالم عند الشرقيين ونظام القيم الشرقي هما اللذان دفعا لانتخاب هذا النوع من اللباس وهذا الشكل من الزي، كما انّ الزي الغربي المعاصر ينسجم ايضاً مع ما لدى الغرب من رؤية عالمية وثقافة مهيمنة عليه.

العلاقة بين الزي الغربي والثقافة الغربية

وحان الوقت الآن كي نسأل: ما هي العلاقة بين اللباس او الزي القصير الضيق الغربي وبين الرؤية الغربية للعالم والثقافة الغربية؟ ارتداء اللباس شأن من شؤون الإنسان، وعلى صلة مباشرة بمعنى الإنسان ومفهومه في تلك الحضارة. فما هو الإنسان في الحضارة الغربية الجديدة؟ ونجيب ماذا نتوقع للإنسان في الحضارة التي هي مادية بالأساس؟ فمنذ ما يزيد عن أربعة قرون حُذِف «الله» من الميدان الحياتي في اوربا واقتصر وجوده على الكنيسة. وزحفت المعنوية الى هامش الحياة، وأضحىٰ هيكل الثقافة والحضارة

الغربيتين، هيكلاً مادياً بحتاً، وتأريخ القرون الاخيرة للغرب، تأريخ لفظ القيم المعنوية السامية. والحضارة الغربية في هذا اليوم مظهر للحياة الخالية من المعنوية والقدسية، ولم يعد الإنسان ذلك الكائن الذي يحمل «الروح الالهية»، أو بامكانه أنْ يكون خليفة الله في الأرض، لأنّ خلافة الربّ المنزوي الذي فقد مكانته في الحضارة الغربية منذ مدة طويلة، لا يُعدّ أمراً مهماً أو قضية معتبرة. فالإنسان في هذه الحضارة لا يختلف اختلافاً أساسياً ووجودياً عن الحيوان. ومن الطبيعي انّ لكل حيوان ميزات وصفات خاصة به: فالأسد ضارٍ مفترس، والطاووس جميل، والفيل قوي، والإنسان ذكي. وما العمل، وقد ظهر هذا الذي يسمى بالإنسان، أذكى من سائر أبناء الطبيعة، ونجح من خلال ذكائه أنْ ينال العلم والتكنولوجيا ويفرض هيمنته على الطبيعة؟ غير انّ بدايته ونهايته لا تختلفان عن أي حيوان آخر. فهو يعيش لسنوات في هذه الطبيعة ايضاً ثمّ يموت وينتهي كل شيء! نعم هذا هو النمط الفكري السائد في الثقافة الغربية التي لا يجب سماع الحقيقة فيها إلّا من لسان علماء العلوم الطبيعية، رغم انّ بعضهم قد ضيّق دائرة الحقيقة حوله بحيث قال: «لن اؤمن بوجود الله ما لم أرَهُ تحت مبضع الجراحة». ولا ريب بوجود تيارات ضعيفة من الافكار المعنوية الى جانب هذا الفكر السائد، وكان هناك كتّاب ومفكرون يحملون أفكاراً من نوع آخر. غير انّ الغرب في هذا اليوم يعيش في ليلة مظلمة خالية من الله، وهؤلاء المفكرون المبعثرون ليسوا سوى كواكب بعيدة خافتة ليس بامكانها ان تحيل هذه الليلة

الظلماء الى نهار ساطع رغم كل ما لديها من تأجج واضطراب[1].

فهؤلاء ما صنعوا الغرب ولن يصنعوه، وزمام الامور في الغرب في متناول يد نظام يؤمن بأنّ المادة أصل ومبدأ، ويرى في كل قيمة أبعد من المادة، شيئاً غير علمي ويعدّها وهماً وخيالاً.

ماذا بامكان الإنسان أن يفعل في مثل هذه الثقافة التي لا حياة له فيها بعد الموت، ولا جنّة تدعوه اليها؟ وهذا الفاصل القصير بين الولادة والممات، هو الفرصة الوحيدة التي لديه كي يعيش، ولا مجال لديه غير هذه الحياة الدنيوية للعيش والبقاء، ولهذا يجد نفسه مضطراً للحصول على اكبر الامتيازات، والتلذذ بكل ما في هذه الطبيعة من أشياء لذيذة، قبل أنْ ينطلق صوت الصفّارة معلناً انتهاء المباراة وحلول ساعة الموت. فقيمة كل شيء في هذه الحضارة تُقاس على أساس اللذة أو المنفعة التي يقدمها ذلك الشيء للإنسان الذي هو حيوان مادي بالأساس. ويُعتبر «جسم الإنسان» أحد الأشياء التي بإمكانها أن تمنحه اللذة.

هذا التحول الذي تزامن حدوثه في الثقافة الغربية مع النهضة الاوربية، واقتطع هذه الثقافة عن القيم الالهية، انعكس على الكثير من شؤون الإنسان في الغرب، وظهر اسلوب جديد في الأدب والفن باوربا في مرحلة ما بعد النهضة، جعل من «الإنسان» اصلاً ومحوراً وأساساً لكل شيء، ولم ينظر اليه كحقيقة سماوية، بل ككائن ارضي، وموجود مادي ودنيوي. وهذه النزعة نحو الإنسان، والتي تبلورت

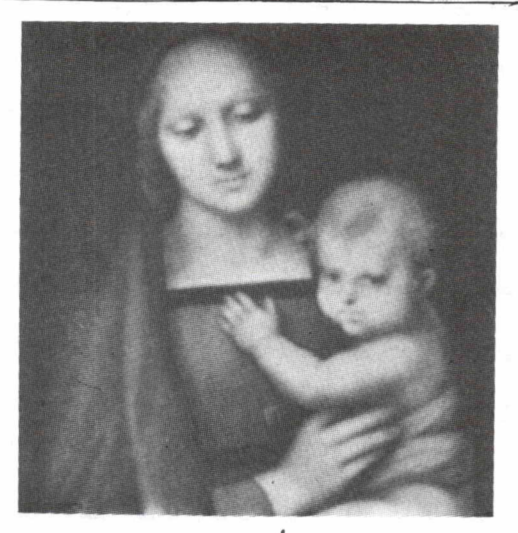
١ـ ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾. سورة النور، الآية ٤٠.

خلال هذه المرحلة في قالب الأدب والفن، وراح يُعبَّر عنها بالحركة الإنسانية (Humanism)، أخذت تكشف عن نفسها بشكل اكبر في الرسوم والنحوت والتماثيل(١).

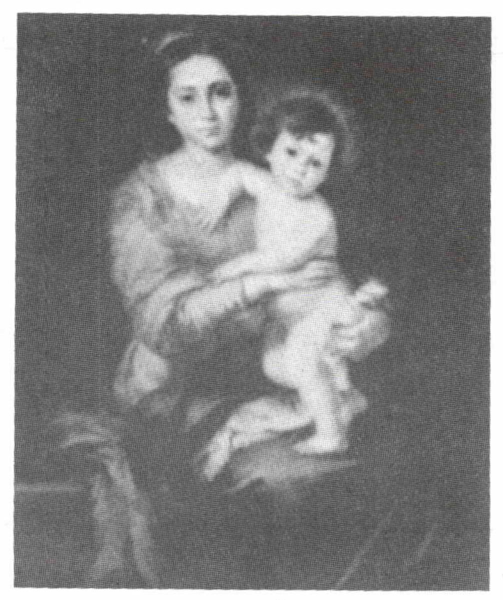
أعمال النحت وصنع التماثيل، التي كانت تنظر الى الإنسان كائناً دنيوياً وجسمانياً، أخذت تصب اهتمامها على «جسم» الإنسان لكي تعبّر من خلاله عن قابلياتها الفنية. وخرجت فجأة من تحت منحات النحاتين في النهضة الاوربية تماثيل ونحوت اكثر ما توحي به هو انّ الإنسان في جسمه، وعلى الفنان الاهتمام بهذا الجسم. وهناك الكثير من هذه التماثيل، وقد يكون تمثال «داود» الذي نحته ميكال انجلو، أهمها وأشهرها. وهذا التمثال يصوّر شاباً في غاية الجمال والنضج وعارياً من كل شيء، وقد تجسّدت بشكل دقيق ليس عضلات رأسه وصدره وأطرافه فحسب، بل حتى تفاصيل أسافل أعضائه. ويُعدّ علامةً بارزة على التغيير الذي طرأ على الثقافة الاوربية (شكل ٢٣)، ويكشف عن نوع الذهنية والثقافة التي كانت توجّه يد الفنّان بعد عصر النهضة.

وتكشف أعمال الرسم هي الاخرى عن التباين الواضح بين هذه المرحلة والمراحل التي سبقتها. والاسلوب الافضل للوقوف على التفاوت بين الرؤيتين القديمة والحديثة، هو اللجوء الى المقارنة بين

١ـ ترسخت الحركة الإنسانية فيما بعد واتسعت حتىٰ أصبحت إحدىٰ أُسس الفكر الغربي. ويعدّ ظهورها في القالب الأدبي او الفني، البوادر الاولى لرؤية جديدة الى الكون.

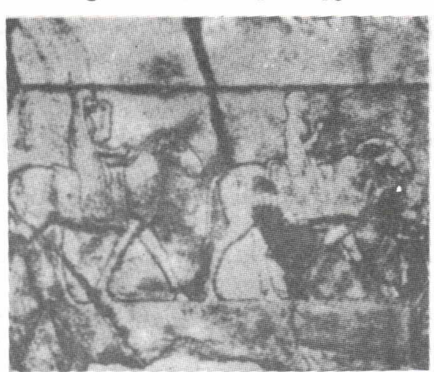


٢١ ـ مريم المقدسة بأُسلوب ما قبل عصر النهضة



٢٢ ـ مريم المقدسة بأُسلوب ما بعد عصر النهضة

٢٣ ـ صورة نصفية لتمثال داود ، من نحت ميكالنجلو



٢٤ ـ نموذج للزي النسوي الايراني القديم ـ العصر الأخميني



٢٥ ـ امرأة من العصر الأشكاني

الرسوم التي تخيّلها الرسامون للسيدة مريم عليها السلام ؛ فالرسوم في مرحلة ما قبل النهضة لم تصور السيدة العذراء مثل سائر النساء العاديات، فنجد في وجهها ملامح العفّة والحياء والتي تضفي عليها حالة ملكوتية وسماوية. وسعىٰ رسام تلك المرحلة كي لا تخرج في هيئة النساء الفاتنات اللاتي يراهنّ من حوله، وبذل كل ما لديه من فن وبراعة كي يضفي عليها جمالاً معنوياً. غير انّ رسام عصر النهضة وما بعده، حاول أنْ يهبط بمريم عليها السلام من السماء الى الارض، وينتخب لها شكلاً من بين النساء الجميلات اللاتي يراهنّ فيما حوله. ومن الطبيعي أنْ لا نجد في لوحة مريم الدنيوية ذلك الحياء المقدس، وأن لا يستقطب النظر منها سوى الملامح الجمالية في وجهها، بدلاً من الملامح التي تعبّر عن القيم المعنوية. وأضحت قيمة مريم تعتمد على جمالها الظاهري في العصر الذي أخذت فيه قيمة الإنسان تُقاس بجسمه وشكله (الشكلان ٢١ و٢٢).

وانسان كهذا لابد وأنْ يستغل كافة غرائزه الطبيعية والجسمية الىٰ أقصى حد ممكن. ولماذا لا يفعل ذلك وهو يرى كل شيء يسعى لتحديده؟ وهل هناك حقيقة أسمى من الطبيعة والجسم لها حضور جادّ في حياته ومجتمعه، كي يضع حدوداً لرغباته الجسدية، وينطلق نحو تلك الحقيقة الأسمى؟ الإنسان حرّ بالطبع، واذا لم تحدد الحياة الاجتماعية حريته، فليست هناك حقيقة في العالم بامكانها أنْ تحدّد هذه الحرية المطلقة. والإنسان ليس سوى هذا «الجسم»، وهذا الجسم هو أهم مناهل لذته، وعليه خلال الفرصة القصيرة التي تفصله

عن الموت أن يتلذذ بكافة اللذائذ ما وجد الى ذلك سبيلاً. نعم «صحراء وصيف وماء بارد واستسقاء».

ومن الطبيعي أنْ تثور الغريزة الجنسية في مثل هذا المجتمع، وتتحول المرأة الىٰ بضاعة تقتصر قيمتها علىٰ ما تقدمه من لذة. ولم تعد المرأة ذلك الإنسان الذي يحمل الأمانة الإلهية وبامكانها أنْ تتسامى حتى تنال لقاء الله ايضاً. انها في هذا المجتمع ليست سوى جسم، وقيمتها بحجم ما لجسمها من قيمة. ولو لم تعرض المرأة في هذه الحضارة وفي هذا المجتمع جسمها، فماذا سيبقى لديها؟ واذا لم يشاهدها الآخرون، فما هي القيمة التي تظل لها؟ إنّ كل ما لديها من وجود يعتمد علىٰ مشاهدتهم لجسمها، وتقييمهم لها من خلال نظرة الابتياع. ولو كان ديكارت قد قال قبل اربعمائة عام «انا افكر إذن أنا موجود»، فالمرأة في المجتمع الغربي الراهن وكافة المجتمعات المتغربة مجبرة كي تقول: «انهم ينظرون لي، إذن أنا موجودة!!». فالمرأة ليست سوى «جسم»، والرجل كلّه «عين» أمامها. المرأة شيء يزنها الرجل باستمرار في كفّتي عينيه ويقيّمها.

كيف تكون الألبسة والأزياء في مثل هذه الثقافة التي فيها الإنسان فارغ وخاو، ويفتقد الى المعنوية، وليس في وجوده رمز ولا سرّ كامن، وكل ما هناك ليس سوى هذا الجسم واليد والعين؟ ومن الواضح انّ اللباس هنا ليس وسيلة لتغطية الجسم وستره، وانما وسيلة من وسائل الزينة والتجمّل. وفي مثل هذه الأجواء التي تتحدد فيها شخصية المرأة بملابسها، يجب ان يكون الفستان الذي ترتديه ضيّقاً

يمتد علىٰ جسمها كالمينا او الطلاء الرقيق بحيث لا تختفي معه مواصفاتها الجسمانية، ويجب أنْ يكون قصيراً كي لا يستر اكثر ما يمكن من جسمها! ولم يعد اللباس بيت الجسم، وانما «جلدها الثاني». انها ترتدي الثوب كي تتمكن بواسطته من صبّ بعض أعضاء جسمها في «قالب» وعرض البعض الآخر في «إطار»! وعلم النفس الجنسي، هو الذي يحدد تصاميم الأزياء. ويلجأ أصحاب التصاميم الحديثة الى التنسيق باستمرار بين العري والتستّر كي يخلقوا في هذا الجنس اكبر ما يمكن من الجاذبية والاغراء، ويثيروا في الجنس الآخر اعظم ما يمكن من الاهتياج والشوق. ولا تقتصر العلاقة بين «العين» و«الجسم» على الزيّ النسوي فحسب، بل تنسحب على الزيّ الرجالي ايضاً. وليس من قبيل الصدفة أنْ يلتصق زي السترة والسروال الرجالي الغربي ـ والذي نرتديه جميعاً في هذا اليوم ـ بالجسم الىٰ هذا الحد وكأنّه صُبَّ قالباً عليه. انه زيّ غربي متأثر بمفهوم القضية الجنسية في الغرب، وهو تعبير عن نزعة غربية نحو تجسيد الجسم حتىٰ علىٰ صعيد الزي الرجالي الذي أُريد له ان يكون ضيقاً ولصيقاً بالجسم الىٰ هذا الحد.

الرأسمالية والأزياء

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فالرؤية المادية الدنيوية الغربية التي لا تبتعد عن اجواء الطعام والنوم والغضب والشهوة، أوجدت نظاماً اقتصادياً منسجماً معها، هو بمثابة واسطة تدفع العالم بكل ما فيه من

طبيعة وحيوان وإنسان نحو الاستهلاك. وهذه هي الرأسمالية التي هي نظام اقتصادي عالمي خالٍ من المعنوية والروح. ويقوم هذا النظام على «التعددية» والتوسعيّة، وهو بمثابة الماكنة الماصّة للعالم. انه يزج بكافة القوى والامكانات العالمية، وكافة الطاقات والغرائز الإنسانية كي يلهب سوق الانتاج والاستهلاك، ويعمد الى استخدام «الجنس» الذي هو قوة طبيعية لدى الإنسان، لصالح نظامه التوسعي الجشع. وهنا يحدث ما سبق أن تحدثنا عنه، وتتحول الغريزة الجنسية واختلاف جنس المرأة عن الرجل ـ والذي هو آية الهية وإمارة من إمارات لطفه وحكمته[1] ـ الىٰ وسيلة لتحريك السوق وازدهار حانوت الاقتصاد الرأسمالي. والغريب في الأمر انّ المرأة التي تنظر اليها الثقافة المعنوية الإسلامية كمصدر للهدوء والطمأنينة ﴿لتسكنوا اليها﴾، نراها في المجتمعات الخالية من المعنوية وسيلة لإلهاب تنّور الطلبات.

المرأة في هذا المجتمع الخاضع لمثل هذا النظام الاقتصادي، وسيلة يجب ان تَستهلِك وتُستهلَك، والاقتصاد الغربي الفارغ من المعنويات، لا يعترف بأية قيمة اخرىٰ عدا هاتين الكلمتين. المرأة ليست إلّا جسم، والجسم يجب انْ يَستهلك ويُستهلك، وهذه الـ «يجب» هي التي تحدد شكل زيّها ولباسها. المرأة في الحقيقة اكثر ضحايا الرأسمالية الغربية ظليمة، كما انها في نفس الوقت أفتك

---

١ ـ ﴿ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم ازواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾. سورة الروم، الآية ٢١.

الأسلحة التي تمتلكها هذه الرأسمالية.

طلبات الإنسان لا حدّ لها ولا حصر، والإنسان مخلوق طالب الى ما لا نهاية. وهذه حقيقة يذعن لها الماديون والمتدينون معاً. والاقتصاد الغربي التوسعي، وجّه هذه الارادة اللامتناهية عند الإنسان في مسار خدمة مصالحه، فامتطى ظهر الإنسان، وألهب قفا جواد غريزته الجنسية بالسياط، فأخذ الحيوان ـ الجامح من الأساس ـ يزداد جُموحاً وشُموساً.

وبدأت الكارثة منذ أنْ تجاهل الغرب الهوية المعنوية للإنسان، وقصر وجود المرأة على جسمها فقط. ثمّ اختارت العيون الجشعة لعبيد الدنيا، المرأة كفريسة لإحماء السوق الرأسمالية، وذبحوها في مسلخ المال. وأُقصي الحب ـ تلك المفردة المعنوية العابقة بالأسرار والرموز ـ وحلّ محلها «الجنس» الذي زُجّ به في خدمة الاقتصاد، وأصبح المنتج لألف صناعة والمحرّك لألف سوق استهلاكية. ومهّد الإعلام والدعايات ـ كالعادة ـ الطريق لقافلة الجنس العجلى، وتلوّث الفن بالجنس حتى طُويت صفحة الحب في هذا «العام المجدب»، وغاب عن الأذهان ان الفن كان في يوم ما نافذة تطل علىٰ عالم المعنىٰ والحقيقة.

والفن الذي كان ترجماناً لعالم «المعنى»، أضحى في هذا اليوم مرآة لعالم «الصورة»، وتحولت السينما ـ التي سُمّيت بالفن السابع ـ الىٰ مرآة لتصوير الابتذال في أحطّ انواعه. وألصق الرأسماليون الغربيون السينما بالجنس، وكأنّ عدسات التصوير ليس في مقدورها

سوى التقاط مثل هذه الصور والمشاهد. وقام التلفزيون بنقل السينما الى البيوت كافة في كل ليلة. اما المسرح فقد تأخّر بعض الشيء، إلّا انه غُلب في نهاية المطاف على يد هذا الغـول الوحشـي الضـاري، وأخذت تُعرض مسرحيات العري والمشاهد الجنسية من علىٰ خشبة المسرح بشكل عادي.

أُولئك الذين يرون أنّ الاختلاف والتباين بين الشرق والغرب ناجم عن التطور الصناعي الغربي والتخلف الشرقي على هذا الصعيد، يجب أن نوجّه اليهم السؤال التالي: ما هـي العـلاقة بـين العـلم والتـطور الصناعي وبين العري؟ لقد حلّ العري في هذا اليوم محل الجمال في الغرب، وحلّ الجنس بدلاً من الحب، واستحوذ الابتذال والاهـتياج الجنسي على اسم الفن. ومن المؤسف أنْ نشاهد المـرأة فـي هـذه الحضارة والثقافة ـ التي تنظر بعين الاحتقار لكافة حضارات العـالم وثقافاته ـ وقد تحولت الىٰ حيوان يجب عليه أنْ يستغلّ جنسانيته بلا حدود وبدون قيد أو شـرط. وهـذا الحـيوان الذي يـمسك بـزمامه الدنيويون الجشعون، يُمسك بدوره بزمام الرجال، وهو عـبارة عـن نظراتهم التي تجرّهم كالعبيد وبمنتهى الغفلة عن كل شيء نحو النساء، واذا كانت حياة المرأة في هذه الثـقافة تـعتمد عـلى النـظرات التـي يصوّبها الآخرون لها، فانّ الرجل يعيش فيها كي يرى المرأة ويلاحقها بنظراته. ومن الطبيعي انّ الفاصل قصير جداً بين «النظرة» و«الإثم»، والنظرة في الحقيقة هي الإثم نفسه. وليس غـريباً أنْ يكـون ثـلث مـجلات بـاعة الصـحف والمـجلات فـي الغـرب مـجلات خـاصة

باستقطاب العيون، وتفوق النسخ المطبوعة منها سائر المجلات الاخرى، كما أنّ ارباحها أكبر، حتى أضحى تصدير هذا النوع من المجلات يشكّل سهماً كبيراً في اقتصاد البلدان الغربية.

الرسم، والموسيقى، والسينما، والمسرح، والمجلة، والكتاب، والصورة، والملصقة الجدارية، عملت جميعها علىٰ جرّ المرأة الى «السوق». ولم يقف الأمر عند الصناعات ذات الصلة بالجنس، فهناك حقلان اقتصاديان عظيمان آخران أخذا ينظران الى المرأة بعين الطامع الجشع ايضاً، وهما صانعو أدوات التجميل، ومصممو الأزياء.

ولو قُدّر أنْ تحل الثقافة المعنوية بدلاً من الحضارة المادية، وأنْ لا ترى المرأة شخصيتها في وجهها وجسمها، فماذا سيكون مصير أصحاب هذه الصناعات العظيمة؟ وهنا نعود ثانية الىٰ قضية اللباس والزي. المرأة الغربية والمرأة المتغرّبة ليس يجب عليها أن ترتدي اللباس الذي يكشف عن جسمها ويبرز مفاتنها فحسب، بل عليها ان تغيّر ذلك اللباس باستمرار بذريعة «الموضة» وظهور تصاميم أزياء جديدة، كي تبقىٰ سوق أصحاب التصاميم وباعة الأقمشة وأصحاب معامل النسيج والخياطين، مزدهرة وحامية بشكل دائم. واذا لم يكن الزي وسيلة للاستعراض والظهور، فما الذي سيحرك عجلة هذه السوق؟ والأمرّ من كل ذلك انّ المرأة ليست وسيلة لكي تستهلك نفسها فحسب، وانما تحولت الىٰ اسلوب ايضاً لمزيد من استهلاك أي شيء آخر؛ فلكي يُباع المزيد من إطارات الجرارات، لابد من وضع صورة امرأة نصف عارية الىٰ جانبها، ولابد ايضاً ان يكون باعة

الأسواق التجارية الكبرىٰ من النساء الشابات. بل ان الجنس والمرأة تحولا الىٰ وسيلة للدعاية للمرشحين في انتخابات البرلمانات والمجالس النيابية.

الجذور التاريخية والنظريات العلمية والفلسفية

الىٰ جانب هذا الجشع الذي يبديه الرأسماليون والذي يعدّ العامل الرئيس الذي يقف خلف تحول المرأة الىٰ سلعة، هناك ايضاً الجذور التاريخية والنظريات العلمية والفلسفية التي عملت هي الاخرى علىٰ إحماء سوق الجنس والعري. فلو لم تعتبر الكنيسة الزواج قضية متناقضة مع المعنوية، والقدسية والروحانية تستلزمان تحاشي الزواج، فلربما لم تظهر ردة الفعل هذه في الحضارة الجديدة. وعلينا أن نذعن بأنّ كلّ تطرف لابد وأنْ يؤدي الى ظهور تطرف معاكس، ولو لم يدعُ قدّيسون مثل سان جروم باسم الدين الىٰ «قلع شجرة الزواج بفأس البكارة»[١]، لما عمد الغرب في هذا اليوم الىٰ «قلع شجرة الزواج بفأس الزنا».

وقدّم علم النفس الدعم في هذا المجال ايضاً، وبرز ذلك من خلال «الفرويدية». وليس من قبيل الصدفة أن يظهر الىٰ جانب سوق الأزياء والتجميل الحامي، مذهب يجعل من الغريزة الجنسية أساساً لشخصية الإنسان ومصدراً لكافة عقائده المعنوية وابتلاءاته الدنيوية.

١ـ الزواج والاخلاق، تأليف برتراند راسل، ص ٣، نقلاً عن «الاخلاق الجنسية في الإسلام والغرب» تأليف الاستاذ المطهري.

ولما كان هذا المذهب يؤمن بأنّ كافة الكوارث ناجمة عن كبت الغريزة الجنسية، فقد اتُّخذ ذلك ذريعة لازاحة كافة الحدود والموانع التي تعترض طريق هذا الحصان الشموس، في محاولة لفك العقد الجنسية للإنسان ومن ثمّ نيله للهدوء. وبهذه الطريقة وجد «الجنس» في العلم وعلم النفس رصيداً ودعامة.

والىٰ جانب علم النفس، ظهرت فلسفات باركت هذا التحلل والجموح الخلقي. ففي الوجودية مذاهب لا تفكّر من بين كل الحقائق المتصلة بالإنسان سوى بـ«حريته»، وترفض على هذا الأساس كافة المبادئ والقيم والقوانين العقلية، والخلقية، والدينية، والعرفية، لأنها ترىٰ فيها عوامل معرقلة لحرية الإنسان، حتى انتهى الأمر بهذه المذاهب الى العبثية والسوفسطائية.

هناك عبارة معروفة لدوستويفسكي تقول: «حينما لا يوجد الله، يجوز عمل كل شيء». والفلسفة التي تبيح كل عمل يرغب فيه الإنسان، انما هي فلسفة دنيوية، ترمي بالإنسان باسم الحرية في صحراء شاسعة لا نهاية لها، خلال ليلة ظلماء معتمة. وصحراء كهذه، لا يُشاهَد السوادُ الأعظم لمدنية فيها في النهار، ولا يتألّق كوكب هداية في الليل. ويمكن أنْ نشاهد نماذج للناس المثاليين لمثل هذه الفلسفات في بطل رواية «الغريب» التي كتبها كامو. وتحدث جان بول سارتر عن هذه الرواية الفلسفية قائلاً:

استيقاظ من النوم، ترامٍ، أربع ساعات عمل في المكتب أو المصنع، غداء، ترامٍ، أربع ساعات عمل، عشاء ونوم، والاثنين،

والثلاثاء، والاربعاء، والخميس، والجمعة، والسبت على هذا المنوال ايضاً...

الدنيا ليست سوى فوضىٰ وهرج ومرج. ووُلد توازن أبدي من الهرج والمرج. وحينما يموت الإنسان، ليس هناك من غد. الإنسان يشعر بالغربة في العالم الذي يُحرم فيه فجأة من كل خيال واهٍ وكل نور... الإنسان عبث، يثبت وجوده عن طريق الطغيان والتمرد... هذا الإنسان «المتنصّل من المسؤولية الى الابد» يرىٰ نفسه محكوماً عليه بالإعدام. وكل شيء مباح وجائز له، لعدم وجود إله، ولأنه سيموت.

ويصف سارتر بطل رواية الغريب قائلاً:

يستحم في البحر في اليوم التالي لوفاة امه، ويقيم علاقة غير مشروعة مع إحدى النساء، ويذهب لمشاهدة فيلم كوميدي كي يضحك، ويقتل عربياً «انزعاجاً من الشمس». وفيما كان «مسروراً، وسيبقىٰ مسروراً» في ليلة إعدامه، يتمنىٰ أنْ يزداد عدد المتفرجين حول خشبة إعدامه «كي يستقبلوه بصرخات غضبهم»[١].

ومن الواضح أن لا معنى للباس والعفاف لإنسان هذه فلسفته.

علاقة الحجاب بالثقافة الإسلامية

كان حديثنا حتى الآن هو انّ الأزياء الرجالية والنسائية السائدة

---

١ ـ نقلاً عن مقال «توضيح الغريب» لجان بول سارتر، في مقدمة رواية الغريب لألبيركامو.

في الغرب هذا اليوم، ذات صلة بالثقافة الغـربية ورؤيـة الغـرب الى الكون. ولابد لنا أيضاً أنْ نتحدث عن العلاقة بين الحجاب الإسلامي والثقافة الإسلامية.

التباين الرئيس بين الثقافة الغربية الحـديثة والثـقافة الإسـلامية، ينعكس في تعريف الإنسان. فاذا كان الإنسان في الثقافة الغربية كائناً تشكل المعنوية فرعاً وشيئاً فوقياً من حياته المادية، فهو في الثقافة الإسلامية كائن يرى في المعنوية الكمال الذي ينشده والغـاية التـي يسعى اليها في حياته. فالمعنوية كمال لا يُنال إلّا بالمراقبة والجـهد والجد والدقة في استخدام كافة المواهب الجسمية والروحية. والقضية المهمة هي أن المعنوية والروحانية في الإسلام لا تتعارض ابداً مـع المادية والجسمانية. وليس صحيحاً فـي الإسـلام أن يـلجأ المـرء لتحطيم واقعيته المادية مـن أجـل الوصـول الى الحـقيقة المـعنوية. فالمعنوية في الإسلام لا تنافس الماديّة كي تسـعى لإقـصائها عـن الميدان، وانما تسلك ازاءها سلوك المرشد والموجّه. فالدين لم يأتِ كي يقتطعنا بشكل نهائي عن الجســم والدنـيا، وانـما جـاء ليـعلمنا «القياس»، كي نبقىٰ في منأى عن التـطرف مـن خـلال الاحـتفاظ بالتوازن والاعتدال، وأنْ لا نـنظر عـلىٰ سـبيل المـثال الىٰ جســمنا فحسب وأنْ لا نقصر التفكير على الانتفاع به واستثماره فقط.

الغريزة الجنسية، إحدى غرائز الإنسان، وإحدى حقائق وجوده. والإسلام لم يتجاهل أية حقيقة من حقائقه بما فيها الغريزة الجنسية، ولم ينظر الى استخدامها علىٰ انه عمل متعارض مع المعنوية ومناقض

للروحانية. والتحديدات والممنوعات التي وردت في الشريعة الإسلامية علىٰ صعيد الغريزة الجنسية، إنّما أُريد منها كبح جماح هذا الحصان الجامح، وصيانته من سياط العابرين وإثاراتهم الطفيلية، كي لا يؤدي ذلك بالجواد الى العَدْو بشكل مجنون، حيث لا يحول دون وصول الراكب الىٰ غايته فحسب، بل ويضرب به الارض ويلحق الأذى به وبالآخرين.

في مثل هذه الرؤية، لا يُنظر الى الجسم بأنه الجزء الوحيد من وجود الإنسان. والإنسان ليس جسماً فحسب كي يفنىٰ بالموت. كما أن التمتّع الجسمي المحدود بين الولادة والموت، ليس هو الفرصة الوحيدة للحياة والتلذذ والسعادة. فالإنسان يتجه نحو الله الذي هو الكمال المطلق ومصدر كافة المحاسن والقيم. وحينما يستخدم الجسم ويتلذذ به، فانما يفعل ذلك بمقدار، وليس في كل وقت، ولا في كل مكان، ولا مع كل أحد، ويرىٰ أنه اشرف من أن يُعْرَف بجسمه، ومهمته أخطر من أن ينبري فيها للكشف عن جسمه أو تزويقه وتجميله. الإنسان في كافة الافكار والرؤى المعنوية ـ ومنها الإسلام ـ لا يرتدي اللباس من اجل أنْ يعرض جسمه، وانما يرتديه لكي يستره. فاللباس بالنسبة له صيانة وبمنزلة سور القلعة الذي يحفظ جسمه، ويذود به عن كرامته. الهدف من اللباس، التقليل من الاثارة الجنسية لا تثوير الغريزة. انه ليس الجلد الثاني للإنسان، وانما بيته الأول. انسان الإسلام لا يرىٰ كماله في تزويق جسمه وتجميله

كالبضاعة التي تُعرض للبيع، بل يلجأ الىٰ بيع نفسه لله[1]، بدلاً من بيع جسمه للناس.

نعم، قضية اللباس والزي، ليست بسيطة او سطحية كي يمكن أن نعدّها خاضعة للذوق فحسب. انها قضية ثقافتين ورؤيتين للعالم، والتباين بينهما بحجم المسافة بين الارض والسماء. ويتجلىٰ هذا التباين في كافة القضايا الرئيسة المتصلة بالإنسان ومن بينها لباسه وزيه. وليس هناك شيء أسهل من تقليد الآخرين في أزيائهم من الناحية النظرية، غير انّ القرون تمر وتبقى المجتمعات محتفظة بأزيائها التقليدية ولا تبادر الىٰ تقليد الآخرين، لأنّ تغيير اللباس لا يحدث اعتباطاً وإنما هو نتيجة من نتائج تغيّر الثقافة. وما لم ينسلخ المرء عن ثقافته، لا يمكن أنْ ينسلخ عن زيّه. وما لم ينصع لثقافة امة ما، لا يرتدي زيها. ولهذا السبب بالذات ورد في الحديث: «مَنْ تشبّه بقوم فهو منهم». فلباس اي انسان، انما هو عَلَم بلاد وجوده، وهو عَلَم يرفعه فوق بوابة بيت وجوده، ويعلن به عن الثقافة التي يتثقف بها. ومثلما تعبّر الامم عن ايمانها بهويتها الوطنية والسياسية من خلال وفائها واحترامها لعلمها، يعبّر الإنسان عن ايمانه بقيمه وأفكاره من خلال ارتداء الزي الذي ينسجم مع تلك القيم والأفكار.

ولو أعلم انّ القارئ لا يشعر بالارهاق من خلال تقديم دراسة قصيرة علىٰ صعيد علم اللغة، لتحدثت عن العلاقة بين الزي والثقافة

---

١ ـ ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ البقرة، الآية ٢٠٧. وكذلك: ﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة﴾ التوبة، الآية ١١١.

من منظار لغوي، في اللغة الفارسية نشير الى اللباس بمفردات مثل «پوشش» و«تن پوش» و«پوشاك»، كما نستعمل فعل «پوشيدن» و«پوشاندن». وغالباً ما تُستعمل مفردة «لباس» في اللغة العربية، اما في اللغة الانجليزية فتستخدم مفردتا «clothes» و«Dress». ولو ألقينا نظرة فاحصة لرأينا ان مفردة «پوشش» الفارسية ـ وتعني اللباس ـ مشتقة من مصدر «پوشيدن»، بمعنى الإخفاء والستر. ولو قال أحد على سبيل الافتراض انّ المعنى الأصلي لكلمة «پوشيدن» كان «الارتداء»، ثمّ أخذت تعطي فيما بعد معنى الإخفاء والستر، لأثبت أيضاً ما ذهبنا اليه. وما يُفهم من مفردات «پوشش» و«پوشاك» و«پوشيدن» هو أن اللباس كان بالنسبة لشعبنا وسيلة لستر الجسم وتغطيته. وقد تجلى الغرض من اللباس في هذه المفردات بشكل طبيعي ودقيق وبدافع من عوامل ثقافية ومعنوية. اي ان كل فارسيّ ـ متعلماً كان او امياً ـ حينما يستخدم مفردتي «پوشش» و«پوشيدن» فانه يريد بهما «اللباس» و«ارتداء اللباس» و«اللبس» و«الاكتساء»، اعتماداً على المفهوم الذي لديه لهاتين المفردتين والمشتقات القريبة منهما، والذي يتّصل في أعماق لا شعوره بثقافته الأصيلة.

ولو رجعنا الىٰ أصل كلمة «لباس» العربية، لرأينا شبيه ما رأيناه في الفارسية أيضاً. فالمصدر «لَبْس» يعني الخلط وجعل الأمر مشتبهاً بغيره وخافياً، كما يعني أيضاً «الشبهة والإشكال وعدم الوضوح» (المنجد). ودخلت مفردتا «تلبيس» و«التباس» الى الفارسية بهذا المعنىٰ ايضاً. ونرىٰ انّ مفردة «لباس» التي تلتقي مع هذه المفردات

في أصل واحد، توحي للعربي بأنه وسيلة لإخفاء الشكل الأصلي للبدن وتغييره، وإظهاره في صورة أُخرى، وخلطه مع شيء آخر، ووسيلة لازالة وضوح ومواصفات البدن. ومن هنا نرى كيف انّ ثقافة امة من الامم مستترة ومتجلية في لغتها في آن واحد.

والمفردة الاخرى التي يُشار بها الى اللباس هي: «شعار». والمعنى الآخر لهذه المفردة هو «العبارة والعلامة الخاصة التي تتخذها فئة من الفئات للتعبير عن نفسها». وتستخدم هذه المفردة بالمعنى الثاني في اللغة الفارسية. واستخدام مفردة «شعار» في اللغة العربية بمعنى «لباس» وبمعنى «العلاقة التي تحدّد فئة او جماعة ما»، انما يبرهن بشكل دقيق على الموضوع الذي تناولناه منذ بداية هذه الدراسة وحتى الآن. ويدور موضوعنا حول انّ لباس كل شخص وزيّه، على اتصال برؤيته واسلوبه، وانه ينمّ عن مكنونات ضميره ويعبّر عن شخصيته. نحن نقول بأنّ لباس كل شخص، شعاره الذي يعلن من خلاله عن موقفه للآخرين، ويقفون من خلاله علىٰ هويته. ولو راجعنا المعاجم اللغوية لوجدنا انّ مفردة «شعار» تُطلق على اللباس ايضاً. وفحوى الكلام هو انّ هذا الإطلاق لم يكن عفوياً أو من قبيل الصدفة، وهذا الاشتراك في اللفظ إنما ناجم بشكل دقيق عن الاشتراك في المعنىٰ، ويؤكد انّ هؤلاء الناس يؤمنون بأن اللباس بمثابة الشعار، والشعار بمثابة اللباس، وأنّ هذا الايمان نابع من أعماق أنفسهم وثقافتهم.

وقد نجد استخدام مفردتي «شعار» و«دثار» بشكل مترادف في

الأدب الفارسي، كأنْ يُقال: «انه يتظاهر بتلك الفكرة الى درجة انـه جعلها شعاراً ودثاراً له». والدثار هو الثوب الذي يُلبس فوق الشعار، أو ما يتغطّى به النائم (تذكّروا ﴿يا أيها المدثر﴾ في القرآن الكريم). والمراد بالشعار والدثار هنا هو أنّ اتصال الفرد وعلاقته بـالعقيدة او الفكرة المعينة، وثيقة الى درجة بحيث يعتبرها بمثابة لباسه الداخلي والخارجي الذي يلتصق به ويعبّر من خلاله عن هويته. ويمكن علىٰ هذا الأساس أنْ نقول بأنّ ارتداء الثوب واللباس يـعبّر عـن تـعظيم الشعائر الثقافية التي يتّصل بها ذلك اللباس. ونحن حينما نرتدي الزي الغربي، انما نعظم بذلك الشعائر الغربية وبشكل مستمر.

ولو ألقينا نظرة علىٰ مصدر كلمة (Dress) الانجليزية والتي تعني اللباس والكساء، لوجدنا أنّ معناها الأصلي ـ والمشتق عن المفردة اللاتـينية Directus ـ هـو: «تـقويم، وتـرتيب، وإعـداد، وتـجميل، وتزيين» وما شابه، وقد أُطلقت فيما بعد على اللباس واللبس. ومن هذا يتضح بشكل جلي كيف انّ المعنى الأصلي والعميق للّباس، هو التجميل والتزويق والزينة والترتيب والتنظيم[١]، ونفهم من هذا ايضاً كيف أن الامم تُفصح عن مرادها من اللباس والزي بألفاظ ومفردات متناسبة مع ذلك المراد.

وفي اللغة الفـرنسية اسـتُعملت مـفردة «Habit» بـمعنى اللـباس والثوب، ثمّ مفردة «Habiter» بمعنى الإقامة، والسكنىٰ، ثـمّ مـفردة

---

١ ـ من الجدير بالذكر انّ الانجليز يطلقون على الخياط الرجالي لفظة «Tailor» وعلىٰ خياط الملابس النسوية لفظة (Dress - Maker).

«Habitat» بمعنى المسكن الطبيعي. وسبق أن قلنا بأنّ «اللباس، هو البيت الأخص لكل إنسان، وكل إنسان يسكن في لباسه اولاً ثمّ في داره». ونلاحظ كيف يتجلّى مثل هذا الحس إزاء اللباس، في الثقافة وفي اللغة. وهذه السلسلة سلسلة طويلة، ونجد أنفسنا مضطرين للاكتفاء بهذا القدر منها.

اللباس وسرّ الضمير

ربما سمع الكثير من القرّاء بهذا الشطر الشعري الذي يقول «لونُ الوجه يُفصح عن سر الضمير»، ومراد الشاعر انّ تغيّر اللون الذي يظهر بشكل طبيعي في وجه الإنسان، ينبئ ولا شك عن التغيّر الناجم في باطنه. وبامكاننا أنْ نذهب أبعد من مراد الشاعر فنقول ليس اللون الطبيعي للوجه فحسب، بل الألوان الصناعية الأُخرى التي يُصبَغ بها تنبئ أيضاً عن سر الضمير. فنوع مساحيق التجميل التي تصبغ بها المرأة وجهها، على صلة مباشرة بوضعها الباطني ونزعاتها النفسية. وليس تزويق الوجه فحسب، بل تزويق وتجميل الجسم بأسره، والشكل وطبيعة الفستان والثوب وقصره أو طوله، تكشف جميعها عن سر ضمير المرأة ايضاً.

اللباس أو الزي لا يخضع لتأثير الثقافة الاجتماعية فحسب، بل ويكشف ايضاً عن هوية أفراد المجتمع. ومن الطبيعي انّ هناك صلة وثيقة بين هوية الافراد والثقافة الاجتماعية العامة. والمجتمع الذي لا قيمة فيه للقيم المعنوية والإنسانية العليا، ويخلو العالم الباطني

للإنسان فيه من الكرامة، وليس لديه معنى مستقل عن المظاهر الخارجية، فلابد أنْ تتبلور فيه شخصية الإنسان وهويته بشكل عام على أساس اهتمامات الآخرين وآرائهم فيه. ومن البديهي أنْ يلجأ أفراد مثل هذا المجتمع الى بلورة شخصياتهم عن أي طريق ممكن بما فيه الزي. وتفصح تصاميم الأزياء والتغييرات الهائلة وغير المنطقية التي تطرأ على الأزياء دون انقطاع، عن وجود مثل هذه الأرضية في ضمير الأفراد ونفسياتهم. وفي المجتمعات الغربية بشكل خاص أدّى النظام الاداري القوي، والمكننة، وهيمنة الأنظمة الاقتصادية والحكومات على التربية والتعليم ووسائل الاعلام، الى ازدياد الشبه بين افراد المجتمع يوماً بعد آخر، وانتزع عنهم كل إمكانية للبروز الفردي والإبداع الشخصي، الأمر الذي أدى الى حاجة كل فرد للإعلان عن وجوده وتمايزه عن الآخرين. وحينما يعجز الفرد عن ذلك من خلال الطرق المنطقية المعقولة، يجد نفسه مضطراً لسلوك أي طريق آخر لتحقيق هذا الهدف، وطالما يسعىٰ عن طريق التغيير في الزي والشكل وطريقة تجميل الوجه وشعر الرأس، الىٰ جلب اهتمام الآخرين نحوه، وانقاذ نفسه من الضياع في المجتمع، لأنه لا يؤمن بحقيقة اسمىٰ من المجتمع، مثل الحقيقة الالهية، ويرىٰ في الضياع او الذوبان في المجتمع فناءً لشخصيته وموتاً له.

وحلّ دور مصمّمي الأزياء كي يلبّوا دعوة هذا الظمأ الذي لا يرتوي، وينتهزوا هذا الضعف الخلقي الناجم عن الانحطاط المعنوي. ولحمّى الأزياء أو الموضة عوامل خلقية ونفسية اخرى. فالمجتمع

الذي يعاني بشدة من التفاوت الطبقي، لابد وأن ينعكس هذا التفاوت علىٰ نوع البيت، وطراز السيارة، واسلوب الحياة، ولاسيما في نـوع الزي واللباس. ويسعى الاغنياء والنبلاء بشكل خاص الى الاعـلان عن ثرائهم من خلال نوع اللباس الذي يرتدونه. واللباس أفضل طرق المباهاة والتفاخر، لأنه مع الإنسان دائماً، بينما السيارة والدار ليستا معه في كافة الاحوال وفي كل مكان، في حين أنّ اللـباس يـرافـق الإنسان حتى أثناء السباحة ـ وإنْ يصل الى الحد الأدنىٰ ـ وبامكانه أنْ يقول من خلاله للآخرين أي إنسان هو!

ما أكثر عقد القيح التي تنفجر في باطن الإنسان علىٰ شكل التفنّن في الأزياء والألبسة، ومنها النزعة نحو أنْ يشير الآخرون اليه بالبنان، والتباهي والتفاخر، والإعلان عن الثراء. ويعبّر الزي ايضاً عند البعض عن الغرور، والحسد، ومنافسة الآخرين. كما يؤثر حبّ الجاه وحب السيطرة على الآخرين، في انتخاب نوع اللباس. فليس العسكريون وحدهم هم الذين يكشفون عن رتبهم ومناصبهم من خلال نوع البزة وعلاماتها (وقد يكون هذا الكشف ضرورياً لهم)، بـل انّ المـجتمع الذي يُطهِّر فيه غيث المعنوية أدران حب الاستعلاء من قلوب الناس، نجد جميع افراده يسلكون السلوك العسكري من خلال ارتداء انواع الألبسة، ويصل بهم الأمر الىٰ محاولة إظهار انهم أفضل وأسمىٰ من الآخرين بواسطة ارتداء الملابس الثمينة الغالية. وقد يلجأ الرجال الى استخدام ألبسة نسائهم للتباهي والتفاخر وحبّ الظهور والاستعلاء. فيحاول الرجل من هذا النوع أنْ يـنقل الى الآخـرين درجـة أُبَّـهته

وعظمته في الحفلات الليلية وفي الشوارع والأزقة من خلال الملابس التي ترتديها زوجته. ونحن نعلم انّ المرأة عند الرجل في المجتمعات التي تفتقد الى المعنوية ليست سوى واسطة للامتياز والتفوّق، وهي ليست سوىٰ أداة من الأدوات الكمالية. وكما انّ الرجل يسعى للتباهي من خلال سيارته وبيته وحذائه وقبّعته، نراه أيضاً يلجأ الىٰ تقديم نفسه للآخرين والإشارة الىٰ أهميته من خلال عرض زوجته وزيّها.

ويُطلق في ثقافتنا الإسلامية على اللباس الذي يُلبَس من أجل استقطاب أنظار الآخرين: «لباس الشهرة»، وَمَنَعَ الإسلام الرجال والنساء بشدة عن ارتداء هذا اللباس. وهناك باب في «فروع الكافي» وضمن «كتاب الزي والتجمل» يدعى «كراهية الشهرة»، فيه الكثير من الاحاديث التي تتطرق الى هذا الموضوع، ونكتفي منها بحديثين:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كفى بالمرء خزياً أنْ يلبس ثوباً يشهره أو يركب دابة تشهره».

كذلك قال الإمام الحسين بن علي عليهما السلام: «من لبس ثوباً يشهره، كساه الله يوم القيامة ثوباً من النار»

قلنا انّ الأعيان والنبلاء يحاولون عن طريق الملابس المتنوعة الثمينة التي يرتدون في كل مجلس واحداً منها، انْ يعلنوا عن وضعهم المادي الجيد ويفرضوا أنفسهم على الآخرين. غير انّ عامة الناس والطبقة المتوسطة التي تهرع حائرة خلف تلك الطبقة، إنما هي واقعة في أسر هذه الطبقة من خلال الأزياء التي تصممها أو ما يسمى بحمى الموضة. فحينما تلجأ الطبقة المرفهة الثرية الى التباهي، عن طريق

التمايز عن الناس العاديين، واستقطاب أنظار الآخرين بواسطة انتخاب تصاميم أزياء جديدة، يجد العوام انفسهم مجبرين علىٰ تقليد الطبقة الارستقراطية، والانكباب على التصميم الجديد، مما يُخرجه في فترة قصيرة عن دائرة تلك الطبقة ويكتسب صفة العمومية، فيسقط من عينها فتندفع ثانية نحو تصميم زيّ جديد، فيجد عامة الناس ـ الذين أثقلتهم تكاليف الزي القديم ـ أنفسهم أمام زيّ جديد وموضة جديدة. وينطلقون ثانية كالخراف خلف ذوق الطبقة المرفهة الثرية. وما أقسىٰ هذا الأسر والعبودية! وما اكثر أنواع هذه العبوديات في المجتمعات الحرة وذات الفكر الحر!

كيف دخل السفور الىٰ ايران؟

سبق أنْ قلنا بأنّ تحاشي إبراز الجسم والعري، والنزعة نحو حفظ حرمة الجسم وامتلاك الشعور بالحياء والعفة، صفات تشترك فيها كافة المجتمعات التي لديها نوع من المعنوية ولا ترى الإنسان جسداً فحسب. وقلنا ايضاً بأنّ هذا العُري المتزامن مع اهتياج الغريزة الجنسية، يعدّ من مميزات الحضارة الغربية الحديثة. وسعت هذه الحضارة منذ ظهورها وحتىٰ يومنا هذا، أن تغطي كالسحابة السوداء سماء العالم كافة، وتحرم الأرض برمتها من شمس الحقيقة. ولا ريب في انّ بلادنا لم تسلم هي الاخرىٰ من الظل المشؤوم لسحابة الشر هذه.

وكان تغيير الزي وانتشار العري بين بعض طبقات المجتمع، أحد

نتائج الغزو الغربي لايران. وقد عُبِّر عن هذه الظاهرة في عهد النظام الطاغوتي بـ «كشف الحجاب»، وراح يُشار اليـها مـؤخّراً بـ «رفـع الحجاب»، وهي في الحقيقة ليست سوىٰ محاربة للـزي الإسـلامي ونشر الزي الغربي.

وكان تنفيذ ذلك المشروع الخـطير بـحاجة الىٰ عـاملين: الأول: وجود الأرضية الثقافية والاجـتماعية المسـاعدة عـلىٰ قـبول الزي الغربي، والثاني: وجود الجهة المنفذة القوية التي لا تؤمن بالإسلام. وكان العامل الثاني متوفراً، وتمثل في رضا خان، العـميل لحكـومة الاستعمار البريطاني، وقد أُوكل اليه «اخراج ايران بشكل سريع من حضيض الذلة الىٰ اوج العزة، والأخذ بيدها من الضلال الىٰ طـريق الرقي!». ولتنفيذ هذه المهمة، أُوعز اليه توحيد الزي الرجالي بالقوة ووضع القبعة البهلوية علىٰ رؤوسهم، وخلع التشـادر (العـباءة) عـن رؤوس النساء.

أما العامل الاول، اي الأرضية الثقافية والاجتماعية لقـبول الزي الغربي، فقد وفّره المتغرّبون. فلم يكـن هـؤلاء يـؤمنون بـالإسلام، وكانوا يحسنون الظن بالغرب بشكل مطلق، وغـرباء عـلىٰ انـفسهم ويحبّون الأجنبي حباً أعمى. وهذه الطبقة ـ في الحقيقة ـ هي نفس تلك الطبقة التي قبلت الثقافة الغربية قبل أنْ تغطس في الزي الغربي وقبل ان ترفع علم الثقافة الغربية، وكـان تـغيير الزيّ، آخـر قشـرة خارجية تتغير فيها. ولم يحدث هذا الأمر الذي يبدو قليل الأهمية، في مجتمعنا فقط، وإنما حدث في الشرق بأسره، وتهافت الكثير من

أبنائه لارتداء الزي الغربي بعد الاستسلام للثقافة الغربية. وفي الزي الرجالي الغربي، كان رباط العنق بمثابة قطعة قماش صغيرة تـافهة، غير انّ دخوله الى الزي الشرقي يعدّ تحولاً ثقافياً كبيراً. واذا لم يكن تقليد الزي الغربي، ثمرة من ثمار الهيمنة الثـقافية الغـربية وهـزيمة الثقافة الشرقية، فلماذا لم يلاحظ حتى اليوم ولا نموذج واحد مـن نماذج أو مواصفات الزي الشرقي سائداً في الغرب أو متداولاً فيه؟ ومن السذاجة أن يُنظر الى هذه القضايا وكأنّها قضايا بسيطة.

الذين وافقوا علىٰ تغيير الزي في مجتمعنا قبل عـام ١٩٣٥ ومـا بعده، هم نفس اولئك الذين رضخوا للثقافة الغربية. والذين رفضوه، هم نفس اولئك الذين أبوا الانصياع للـثقافة الغـربية، ولم يُـخدعوا بمصطلحات «الرقي» و«الحرية» و«المساواة في الحـقوق»، ونـفس اولئك الذين وقفوا بوجه القوة والعنجهية. وكانت القضية تبدو بسيطة للغاية: كان رضا خان يسعى لاخـراج المـرأة مـن كـيس التشـادر الأسود، وادخالها الىٰ عالم النور والرقيّ الجديد. غـير انّ الأغـلبية الساحقة من هذا الشعب رفضت هذا الاقتراح البسيط المنطقي الظاهر رفضاً باتاً، وأعلنت عن اسـتعدادهـا للـتضحية بأرواحـها وارتـداء الأكفان، من اجل ان لا ترتدي الزيّ الغربي.

لا ريب انّ دفاع نسائنا عن زيهنّ وحجابهن خلال عملية انـتزاع الحجاب التي أمر بها رضا خان، يُعدّ ملحمة مجيدة ورائعة في تاريخ شعبنا. كما انّ الأحداث المؤلمة التي شهدها مسـجد «جـوهرشاد» بمشهد المقدسة واستشهاد البعض بعد وقوف تلك الفئة الكبيرة بأيدٍ

عزلاء بوجه الأسلحة تعبيراً عن رفضهم للسفور الرضاخاني، يُعدّ ايضاً وثيقة افتخار لشعب يصرّ على الدفاع عن المعنوية والثقافة الإلهية حتىٰ آخر نفس.

وبذل رضا خان وجلاوزته كلّ ما لديهم من قوىً وإمكانات من اجل انتزاع التشادر من النساء، وصدرت الأوامر للشرطة آنذاك بانتزاع التشادر ومقنعة الرأس عن أية امرأة يشاهدونها. وتحدّث لي صديق عن مدينته الصغيرة «كاشمر» فقال بأنّ رئيس الشرطة فيها (وهو نفسه الذي قتل الشهيد مدرس) كان يقف على تل في اطراف المدينة ويراقبها بناظور كان معه، وإذا ما شاهد عن بعد امرأة محجبة، أمر أفراده بامتطاء الخيول والإمساك بها وخلع حجابها وتمزيقه. وما اكثر النساء اللاتي توفين حزناً وألماً بعد أن انتزع افراد الشرطة التشادر عنهن، وما اكثر النساء اللاتي تعرضن للاجهاض بسبب الاضطراب والتأثر والخوف. وما اكثر أُمهاتنا وجدّاتنا اللائي لم يخرجن قط من بيوتهن خلال تلك السنوات الخانقة ، خوفاً من المصير الذي ينتظرهن على أيدي جلاوزة الدكتاتور. واضطر البعض لتشييد الحمّامات في البيوت ـ ولم تكن في البيوت حمامات عادة ـ كي لا يضطر للخروج من البيت حتى في الحالات الضرورية. والتقيتُ شخصياً في حوالي عام ١٩٦٧ بشيخ معمّم محترم في شيراز، لم يخرج من بيته قط منذ عام ١٩٣٥ ـ أي عام السفور ـ وحتى زمن زيارتي له في بيته، الىٰ أن توفي آخر المطاف دون ان يضع رجلاً في الزقاق طيلة تلك الفترة. وقد دفعه الى اتخاذ قراره هذا

هو انه قد حرّم على نفسه رؤية الزقاق بعد أنّ خلع رضا خان حجاب المرأة فيه.

ومن اجل ان لا ينظر البعض الى قضية تـغيير الزي وكأنـها امـر عادي وبسيط، ولكي تُدْرَك وفق مقياس عـالمي، ارتأيت أنْ أنـقل بايجاز تاريخ تغير الزي الياباني عن كتاب غربي يدعى «الزي والزينة والنظام الاجتماعي»، وأدعو القارئ الكريم الى التأنّي، والوقوف عند التشابه في التحول الذي حصل في اليابان وايران على هذا الصعيد، لاسيما ما يتعلق منه بالعاملين اللذين سبق أن اشرنا اليهما بخصوص ايران.

كيف أصبح الزي الياباني غربياً؟

كان كافة اليابانيين يرتدون الزي المحلي الياباني قبل العقد السابع من القرن التاسع عشر. وكان الـ«كيمونو» ـ الشكل ٢٦ ـ يشكل الزي الياباني الأصلي، وهو عبارة عن ثوب طويل فضفاض يُحتَزَم عـليه حزام عريض. طبقات هذا الثوب العديدة وبطانات الكتان والحـرير تعمل علىٰ جذب الحرارة والاحتفاظ بها... وترتدي الطبقة المتوسطة عادة الكيمونو الكتاني والقطني، في حين تـرتدي الطـبقات الغـنية الكيمونو الحريري. وحتى تلك الفترة لم يكـن اليـابانيون يـنتجون القماش الصوفي ولم يعرفوا هذا النوع من القماش... والفـئة الاولى التي قلّدت الزي الغربي في اليابان كانت فئة الضباط وبعض كـوادر الوحدات العسكـرية وأفـراد القـوة البـحرية الذيـن اقـتبسوا زيـهم

العسكري عن البحارة الانجليز في يوكوهاما.

والتحول السياسي الياباني الذي حدث عام ١٨٦٨م، يُعدّ أهم الأحداث التاريخية التي شهدها هذا البلد. وأمسكت خلال هذا التحول حكومة مركزية قوية بزمام الامور وانطلقت لمجابهة الإقطاعية. وكانت تميل نحو التنمية الاقتصادية علىٰ غرار الأساليب الغربية. وكانت سياسة هذه الحكومة الجديدة علىٰ صعيد الأزياء، سياسة واضحة. فحينما زار الدوق ادينبره اليابان، قرر البلاط الياباني استقباله بالزي الرسمي الغربي. وفي عام ١٨٧٠ أُلزم طلبة كلية القوة البحرية بارتداء البزة الانجليزية. وكان طلبة الكلية العسكرية يرتدون البزة الفرنسية ايضاً. واستُبدل زي رجال الشرطة والبريد في عام ١٨٧١، وزي عمال قطار طوكيو ـ يوكوهاما في عام ١٨٧٢.

وحدثت مناقشات صاخبة في عام ١٨٧١ بين الوزراء وأعضاء المحكمة العليا حول: هل يرتدي كبار موظفي العاصمة والولايات الزي الياباني أم الزي الغربي؟ وكانت الغلبة من نصيب أصحاب النزعة الغربية. وفي نفس العام بالذات وجّه البلاط كتاباً الى العدلية طالبها فيه بالغاء الزي القديم ذي الطابع النسائي وغير الياباني، وضرورة ان يرتدي موظفو الدوائر والعدلية الزي الغربي الذي هو اكثر انسجاماً مع الأعمال. وفي عام ١٨٧٧ حدثت مجابهة بين الجيش الجديد المؤلف من الجنود المكلفين وبين الشعب الذي تصدّى للحكومة الجديدة. وكان الجنود يرتدون زياً عسكرياً موحّداً جديداً من القطن، في حين كانت القوات الشعبية المناضلة ترتدي زياً محلياً



٢٦ ـ الكيمونو الياباني

من الكتان والحرير شبيهاً بالزي «الساموري».

ومنذ عام ١٨٨٠ اكتسحت الأزياء الاوربية أجزاء حساسة من السوق بشكل تدريجي، واخذت تنفذ بين الطبقات المرفهة شيئاً فشيئاً. وانبرت الطبقات العليا من المجتمع لتقليد اللهو الغربي، كالرقص الجماعي، وحفلات الهواء الطلق، والحفلات الموسيقية، وكانت ترتدي أزياء الليل الغربية في كافة تلك الحفلات. وانسحب الأمر على الملكة وسائر سيدات البلاط فأخذن يظهرن بهذه الأزياء أمام الأنظار. وفي العقد التاسع من القرن التاسع عشر، أمرت وزارة التربية والتعليم كافة طلبة الجامعات والمعاهد بارتداء الأزياء الغربية، غير انّ المعاهد العليا غير الرسمية لم تستجب لهذا الطلب لفترة طويلة من الزمن. وفي نهاية القرن التاسع عشر، ارتدى المهنيون، والمعلمون، والأطباء، وموظفو المصارف، وسائر رواد المجتمع، الزي الغربي، خلال العمل وفي أغلب النشاطات الاجتماعية المهمة. وفي عام ١٨٩٨ بلغ استهلاك المنسوجات الصوفية ذروته حينما سجل رقم ثلاثة ملايين متر، وقد استُوردت بكاملها من بريطانيا وألمانيا.

وفي مطلع القرن العشرين، وبعد مرور ما يزيد عن ثلاثين عاماً على التحول السياسي الذي شهده عام ١٨٦٨، راح يُنظَر الى الزي الغربي علىٰ انه دليل على الرقيّ والتقدم... والانتصار الذي أحرزته اليابان على روسيا في حرب ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ وما تلاه من نمو اقتصادي مفاجئ، أدى باليابان الى الانبهار باوربا اكثر من أي وقت

مضى، فازداد بشكل كبير عدد اولئك الذين يرتدون الأقمشة الصوفية والأزياء الغربية. ورغم هذا، لابد من القول انّ عدد الذين كانوا يرتدون هذه الأزياء خلال تلك الفترة كان محدوداً، وكانت الأغلبية الساحقة من اليابانيين ملتزمة بارتداء زيها المحلي. كما ان تلك الفئة القليلة التي كانت تتزيا بالزي الغربي مكرهة او راضية، كانت تهرع الى خلعه عنها بمجرد دخولها الى البيت وتُقبل على ارتداء الكيمونو الذي تجد فيه الراحة. وكان الزي الغربي ـ في الحقيقة ـ زيّ الزقاق والشارع، وظل الزيّ الياباني ولفترة طويلة زياً للبيت...

ورفض عامة الناس الزي الغربي الىٰ ما قبل الحرب العالمية الاولى، إلّا انهم وافقوا على استخدام المنسوجات الصوفية الىٰ جانب الكتان والحرير... وكانت هناك عقبتان كبيرتان تقفان بوجه انتشار الأزياء الغربية: الاولى استمرار انشداد اليابانيين نحو أزيائهم وملابسهم المحلية، والثانية ارتفاع سعر الاقمشة الصوفية وانخفاض سعر الألبسة التقليدية.

وخلال فترة الحرب العالمية الاولى، نما الاقتصاد الياباني بشكل هائل، وهذا ما أدىٰ بدوره الىٰ نفوذ التقليد الغربي الى الحياة العامة. وأخذت الألسن تتناقل مصطلح «بونكا» الذي يعني «التقدمي والعصري»، والذي كان يُراد به الحياة وفق النمط الغربي. وأخذ الناس يتمنون أن يكون لديهم بيت وطعام ولباس «بونكاويّ». اي انّ الجميع كانوا يتحسّرون على البيت والطعام واللباس الغربي... وفي حدود عام ١٩٢٠ اتجهت المدارس الابتدائية والمتوسطة وبشكل

عنيف نحو تقليد الغرب... وشدّد من هذه النزعة خلال هذه الفترة، انتشار الرقص واللهو الجماعي.

وفي نهاية العقد الرابع من القرن العشرين، كان القرويون اقل الفئات تأثراً بتلك التطورات، وكانوا يؤلفون آنذاك ما يقرب من ٤٠ ٪ من نفوس البلاد. والأمر الجدير بالاهتمام في تلك الفترة هو انّ اغلب الشعب الياباني ـ في المدن والقرى ـ كان يرتدي الزي التقليدي في البيت عند الاستراحة والنوم وتناول الطعام...

ولم يطرأ تطور غير مترقب منذ الحرب العالمية الثانية وحتىٰ يومنا هذا. ولا زال تقليد الأزياء والموضات الغربية مستمراً الى اليوم، وازداد تسارعاً ايضاً. والمنظر العام للشوارع والمعابر منظر يمتزج فيه الزيّان التقليدي والحديث. ويؤمن الجميع انّ الكيمونو يعيش حالة الاحتضار، إلّا انه سيظل جزءاً من اسلوب الحياة اليابانية لبعض الوقت[١].

ونرىٰ من مجمل ما تحدثنا عنه انّ القضية ليست قضية الحرية الفردية والذوق الشخصي، وانما هي غزو تشنّه ثقافة عديمة المعنوية، علىٰ كافة الثقافات المعنوية والتقليدية. كما نرىٰ في اليابان التي لا صلة لها بالإسلام كيف انّ رجالها ونساءها كانوا يرتدون قبل التغرّب الألبسة الواسعة الطويلة، وكيف لجأت الاسرة الملكية والأعيان والطبقة الارستقراطية في هذا البلد الىٰ خلع الزي التقليدي وارتداء الزي الغربي وتقليد الغرب في الرقص، والموسيقىٰ، والعادات

---

١ ـ عن كتاب Dress' Adornment and the Social Order، ص ٣١٢.

الاجتماعية، وقد حدث ذلك بشكل خاص بعد مجيء حكومة مركزية قوية تذكّرنا بحكومة رضا خان.

وكان حديثنا منذ البداية وحتى الآن يدور حول انّ ستر الجسم والحفاظ علىٰ حرمته من أيدي الآخرين وأبصارهم، انما هو أمر عام بين كافة الشعوب غير الغربية، كما ان تغيير الزي في ايران، حدث بالقوة والعنف وبأوامر الغرب ورغبته وصالحه. ولا بأس أن ننقل مقطعاً من كتاب لمؤلف شهير نسبياً، حيث يؤمن مثلنا بأنّ المرأة في الحضارات السالفة كان لها نوع من الحجاب. إلّا انّ النتيجة التي توصّل اليها من هذه المقدمة هي عكس ما توصلنا اليه تماماً، والأفضل ان ننقل هذا المقطع ونترك المقارنة والحكم للقارئ الكريم:

«يبدو لنا من خلال دراسة آثار مختلف الحضارات بأن حجاب المرأة، كان من العادات القديمة للحضارات الإنسانية. ومن غير ريب ان القبائل المتوحشة وغير المتمدنة لم تكن تعرف الحجاب او اللباس حتى علىٰ صعيد نسائها. إلّا انّ الامم المتمدنة كانت فيها النساء المحترمات يغطين وجوههن انطلاقاً من الشعور بالغطرسة وحب التجمل. ولاشك بأن ظهور الحجاب، كان لحفظ حرمة المرأة في بداية الأمر، ثمّ اكتسب حالة العفاف فيما بعد وبشكل تدريجي، واختلط بالآداب الدينية. وكان للمرأة اليونانية حجاب، كان شائعاً في جزيرة خيوس لفترة طويلة من الزمن.

وتحدّث اغلب المؤلفين اليونانيين عن الحجاب، وذكروا انّ «بين لوب» ابنة الامبراطور اليوناني اوليس، كانت محجبة. وكان لنساء

مدينة «تب» حجاب خاص فيه ثقبان مقابل العينين كي يُتاح لهن النظر، وكانت الفتاة الأسبارتية تتحجب بعد زواجها.

والنقوش المتوفرة تشير الىٰ ان المرأة الأسبرطية كانت تغطي رأسها دون وجهها، وكانت تتحجب ـ متزوجة أو عزباء ـ حينما تخرج الي السوق. وكانت المرأة الايرانية الارستقراطية تغطي وجهها وتطيل ضفائرها حفظاً لشرف طبقتها الممتازة ووضع الحدود التي تميزها عن المرأة العادية والطبقة الرابعة. ولم يكن للمرأة العادية كما يبدو ضفائر طويلة، وربما كان السبب في ذلك هو ان الضفائر الطويلة تحول دون حريتها في الحركة والعمل على اعتبار انّ اغلب نساء الطبقة الدنيا كنّ يزاولن الأعمال. ولهذا كان تطويل الضفائر، ميزة خاصة بنساء الطبقة العليا، فضلاً عن انّ الحجاب كان مقتصراً عليهن ايضاً. وعُدّ هذا الرسم الوطني أحد العادات الدينية بعد دخول الإسلام الى ايران، وعمّ كافة الطبقات بشكل تدريجي، حتىٰ أُلغيت هذه العادة الخاطئة مؤخراً بهمة وإرادة شاه ايران العظيم وذلك في السابع من كانون الثاني عام ١٩٣٦. ولابد أن نعلم بأنّ الدين الإسلامي لم يأمر بالحجاب مطلقاً، ولا يمكن للحجاب أن ينسجم مع الاهداف السامية لهذا الدين السماوي والرامية الىٰ إنقاذ المرأة من البؤس والشقاء وإحيائها...»[١].

وكما يُكتب تحت بعض الرسوم الكاريكاتيرية «بدون تعليق»،

١ـ حقوق المرأة في الإسلام واوربا، تأليف حسن الصدر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٣، ص ٤٨و٤٩.

نقدم نحن المقطع أعلاه بدون تعليق ايضاً، إلّا ان الذي يجب أن نقوله هو انّ أغلبية أبناء الشعب، تحدّت قرار رضا خان بخلع الحجاب ووقفت بوجهه، ورأى الجهاز الحكومي البهلوي نفسه ينهزم يوماً بعد آخر في هذه القضية، رغم كافة ما كان لديه من قوى وضغوط اجتماعية وإعلامية ودعائية. ولو كان لدى العدو شيء من الفطنة والذكاء، لأدرك من خلال مقاومة الشعب لمشروع خلع الحجاب، مدىٰ ايمانه بالإسلام ووفائه له. وربما كان قد أدرك ذلك، لكن ماذا كان بامكانه أن يفعل؟ ورأينا في نهاية المطاف انّ تلك النساء اللاتي لم يسمحن لرضا خان ان يُلبسهن العلم الأجنبي بعد خلع زيهن الإسلامي، واللاتي قاومن لسنوات عديدة مقاومة سلبية من خلال البقاء في بيوتهن، كيف ثُرن بعد ما يربو علىٰ أربعين عاماً مع بناتهن وحفيداتهن، وبذلك الحجاب، أي العلم الإسلامي، واستطعن الىٰ جانب اخوتهن الاطاحة بالاسرة البهلوية خلال ثورة دامية، وإغلاق ملفّ السلطة الثقافية الرضاخانية[1].

---

١ ـ والغريب في الأمر ان أُولئك الذين يعارضون الجمهورية الإسلامية في قضية الحجاب باسم الحرية والديمقراطية، والمثقفين الذين يعتبرون ارشاد الحكومة الإسلامية في ارتداء الزي المناسب امراً يتناقض مع الحريات الفردية والديمقراطية، لم ينبس أي منهم ببنت شفة في مرحلة الاستبداد والهمجية التي سعى فيها رضا خان الىٰ فرض العري على الشعب بقوة الحراب، ولم يعترض أي منهم على ذلك ولم يقل بأنّ إجبار الشعب علىٰ خلع الزي الذي يرغب فيه (بغضّ النظر عن اعتقاده الديني)، عمل يتعارض مع الحريات الفردية والاجتماعية. فهؤلاء من النوع الذي يتذكر الديمقراطية ←

وأي شيء يمكن أن يكون أفضل من كلمات الإمام الخميني كنهاية لهذا الفصل؟ لكنها ليست تلك الكلمات التي قالها بعد الثورة ولا حتىٰ قبل الثورة بسنتين، ولا تلك التي قالها ايام انتفاضة «خرداد»، وانما هي كلمات مرّت عليها عشرات السنين، وقالها حينما كان يكتب كتاب «كشف الأسرار». كان إمام الأُمة في تلك الفترة التي بهرت فيها مظاهر المدنية عيون الكثير من رجال السياسة والكتّاب والمثقفين وأصمّت أسماعهم، يرىٰ بعينه التي استنارت بنور الله ما لا يراه هؤلاء ويرفع صوته مدوياً بذلك. كان يبصر في شبابه آنذاك ما لا يبصره بعض شيوخ هذا اليوم، وكان يصرخ مدوياً:

«نحن نعلم انّ هذا الكلام ثقيل جداً على أُولئك الذين نشأوا على الخيانة والشهوة والغناء والموسيقى والرقص وأَلْفِ مظهر من مظاهر الفسق والفجور. من الطبيعي انّ هؤلاء الذين يرون تقدم البلاد في عري النساء بالشوارع، وعلىٰ حد تعبيرهم الأبله بأن نصف سكان البلاد سيتحول الىٰ قوى عاملة بانتزاع الحجاب (لكنه أي عمل؟ كلكم تعلمون ونعلم)، ليسوا على استعداد كي تدار البلاد بشكل معقول وتحت القانون الإلهي والعدل. نحن لا كلام لنا مع اولئك الذين

← والحرية حينما يتعلق ذلك بأمر معارض للإسلام. انهم يرون اليوم في التعليمات التي توجهها الحكومة الإسلامية بضرورة رعاية الحجاب الإسلامي، قتلاً للحرية الفردية، ووجوب الوقوف بوجهها، والانتحاب من اجل الحقوق المهدورة! في حين انهم لم يروا بالأمس في تمزيق تشادر المرأة المسلمة ومقنعتها في نفس هذا البلد، ما يتعارض مع الحرية، في حين يعلم الجميع انّ تحجيب المرأة غير المؤمنة بالحجاب، أسهل بكثير من خلع الحجاب عن المرأة المؤمنة به.

ليست لديهم القدرة على التمييز، بحيث يرون في القبعة المستديرة التي خلّفها وحوش اوربا، رقيّاً للبلاد، وهؤلاء لا يقبلون منا كلاماً معقولاً، وقد سرق الأجانب عقلهم وفطنتهم وحسّهم...

كانوا يقولون جميعاً في ذلك اليوم الذي وضعوا فيه علىٰ رؤوسهم الخوذة البهلوية: يجب أنْ يكون للبلاد شعار وطني، والاستقلال في الزيّ دليل على استقلال البلاد، وحافظ لها. وبعد ايام من ذلك وضعوا قبعةً مستديرة علىٰ رؤوسهم، وتغيرت كلماتهم فجأة، فقالوا: لدينا اتصال مع الأجانب، وعلينا أنْ نكون جميعاً في شكل واحد كي نكون عظماء في العالم.

والبلاد التي تصنع لنفسها ـ أو يصنعون لها ـ عظمة بالقبعة، فإنهم سينتزعون عظمتها أيضاً حينما يسرقون قبّعتها»[1].

نظرة أخرىٰ نحو الحجاب من زاوية اخرىٰ

بعد أن طُرح الحجاب مرة ثانية في عام ١٩٨٠ من قبل الحكومة الإسلامية في ايران، خرجت علينا مجلة فكاهية اسبوعية بكاريكاتير عميق المعنى. كان يتألف من لوحتين: الاولىٰ تصوّر إمرأة ترتدي التشادر وقد أحاط بها شرطة رضاخان وهم ينتزعون التشادر عنها ويضربونها في حين كان الهلع قد استولىٰ عليها. وكُتب تحت هذه اللوحة كلمة «أمس». والثانية تصوّر امرأة متبرجة ترتدي الميني جوب وقد احاط بها بعض حرس الثورة ورجال اللجان الثورية

---

١ ـ كشف الأسرار، الإمام الخميني، ص ٢٢٣ و ٢٢٤.

ومعهم شخص يذكّر بآية الله الخلخالي، وهم يقدمون لها مقنعة رأس. وكُتب تحت هذه اللوحة كلمة «اليوم».

ويمكن ان يوحي هذا الكاريكاتير بكثير من المعاني. فيمكن أن يُقال ـ علىٰ سبيل المثال ـ انّ المسلمين الذين تعرضوا للأذى وغمط الحقوق في قضية خلع الحجاب بالامس، نراهم يثأرون لذلك في هذا اليوم بعد ان امسكوا بزمام الامور، ويحاولون ان يتداركوا الظلم الذي الحقته شرطة رضاخان بنسائهم، من خلال إلحاق حرس الثورة الظلم بالنساء المتبرجات. والتفسير الاكثر عقلانية لهذا الكاريكاتير هو: يا رجال الحكومة الإسلامية، مثلما فشل رضا خان في فرض السفور عن طريق القوه ستفشلون ايضاً في فرض الحجاب عن طريق القوة.

وهذا الكلام كلام صحيح. أي لو لم يكن لدينا في قضية الزي الإسلامي منطق رصين، ولو فقدنا الاستدلال، وعجزنا عن إثبات أحقية هذا الزي وضرورة العمل به عن طريق الحجة والبرهان، سنؤول ولاشك الىٰ نفس المصير الذي آل اليه رضاخان. ولو فشلنا في النفوذ الىٰ افكار الناس وقلوبهم، فليس بامكان قوة لجان الثورة وحرسها ان تفعل شيئاً لوحدها. وهنا يجب أنْ لا يغيب عن البال أنّ في كل مجتمع وعلىٰ مرّ الأزمان فئة لا تفهم لغة المنطق والبرهان ولا يمكن التحدث معها إلّا بلغة القوة، وقد قال الشاعر العارف حافظ «السيف يليق بمن لا يفهم الكلام». لكن يجب علينا أنْ نستخدم لغة الدليل والبرهان قبل استخدام لغة القوة بفترة طويلة.

ولابد لنا أن نطرح السؤال التالي علىٰ أنفسنا: ما هو الدافع الذي

يقودنا نحو نشر الحجاب الإسلامي بشكل كامل في المجتمع؟ فهل هو تنفيس عن العُقَد وثأر للظلم الذي لحق بالجيل السابق من خلال إلحاق الظلم بالجيل التالي؟ وهل أوقعت السلطة رجال الحكومة الإسلامية في شراك الدكتاتورية؟ ثمّ لماذا تلجأ الجمهورية الإسلامية الفتية والتي لم تستحكم جذورها بعد ولديها ألف عدو ذي ألف وجه في داخل البلاد وخارجها الىٰ فرض الحجاب الإسلامي على المرأة، في حين هناك الكثير من المشاكل الأساسية التي تنتظر الحل؟ ألا تُعدّ هذه الخطوة عملاً غير سياسي، على الأقل؟

وقبل الإجابة علىٰ هذه الأسئلة كافة، لابد من سماع دليل الحكومة الإسلامية في ضرورة الزي الإسلامي. فاذا لم يكن هذا الدليل مقنعاً، سيتمهَّد حينئذ الطريق لتبريرات من هذا النوع الذي أشرنا اليه. وبدون أن أكون معتقداً باستخدام القوة في فرض الحجاب الإسلامي أو أن أُؤيد الموقف المتشدّد بدون قيد أو شرط، اوجّه خطابي لأولئك الذين يقارنون جهود الحكومة الإسلامية لوضع قاعدة او قانون ينظم الزي الإسلامي، بالقمعية التي مارسها رضا خان في انتزاع الحجاب، وأقول انّ هذه المقارنة تكون صحيحة حينما يكون دافعنا نحو الحجاب بحجم وشكل دافع رضا خان نحو خلع الحجاب. صحيح بأن كل شخص يؤمن بأنّ العمل الذي ينجزه هو أفضل عمل ممكن، غير انّ الجماهير بامكانها أنْ تسمع كلام الجميع وتقارن بشعورها وفطرتها السليمة الإلهية أدلة كل جانب. نريد أن نقول: لو افترضنا أن ظاهر العملين متشابه، لكن يجب ألّا نحكم من

خلال ذلك ان قيمة العملين واحدة. فالجراح الذي يشق بطن المريض لانقاذه من الموت لا يختلف في ظاهره عن المتهور الذي يمزّق بطن شخص آخر كي يقتله، لكن هل يجب أنْ نُدين عمل الجراح لأننا سبق لنا أن أدنّا من قبل عمل ذلك المتهور القاتل؟

وأما الدليل

ورغم انّ ما سبق أنْ قلناه علىٰ صعيد وجود الحجاب في الثقافات والحضارات غير الغربية، ومقارنتنا له بالثقافة الغربية، يُعدّ دليلاً بحد ذاته، إلّا اننا نريد ان ننظر الى الزي واللباس من زاوية اخرى، دون العوة الى التاريخ المنصرم، ونقدم أدلة اخرىٰ بهذا الشأن.

وأول ما نقوله هو انّ العُري يقضي علىٰ كل قيمة للمرأة، ويهبط بها الىٰ مستوى البضاعة و«الجنس». ولاريب في انّ هناك غريزة جنسية لابد من إشباعها مثل اية غريزة اخرىٰ، غير انّ هذا الإشباع لا يعني تعميم قضية الجنس ونشرها. فالمرأة التي تعرض مفاتنها الجسمية أمام الجميع وتسحب كل ما يتعلق بانوثتها نحو الزقاق والسوق، انما تريد أن تحتل مكاناً في المجتمع اعتماداً علىٰ «أُنوثتها» لا علىٰ «إنسانيتها». وهي تحاول ـ في الحقيقة ـ عن هذا الطريق أنْ تُعلن بأنّ هذه الانوثة هي المبدأ الأساس بالنسبة اليها، وليس الإنسانية او الفكر او الكفاءة والجدارة. ومثل هذه المرأة ـ وكما قلنا ـ أسيرة نفسها قبل أي شيء آخر، وهي أشبه بصاحب الحانوت الذي يفكر دائماً في تزيين حانوته وتغيير زخرفته، ولا يسمح له هذا الهمّ الدائم

بالتفكير بقضايا اكبر وأهم. والمرأة التي تعيش هاجس الجمال والزينة بشكل دائم، هل بامكانها ان تتعاطف مع ابن بلدها الجائع المحروم؟ وهل بامكانها أن تفكر في إنقاذ مستضعفي هذه الأرض؟

المجتمع الذي لا يزن المرأة بالمعايير الإنسانية وانما بالمعايير الأُنثوية، إنما ينظر الى المرأة كبضاعة لابد من التعامل معها على هذا الأساس. واسمحوا لي هنا أنْ انقل لكم نموذجاً حقيقياً بدلاً من أي توضيح أو تعليق كي تعلموا ماذا تفعل الرأسمالية ـ التي هي الوجه الاقتصادي للفكر المادي ـ حينما يهيمن هذا الفكر على مجتمع ما ويتعامل مع الإنسان كحيوان ومع المرأة كبضاعة. وهذا النموذج الحقيقي عبارة عن دعاية تجارية أنقلها عن كتاب يحمل عنوان «النفس المرئية: نظرات في الزي»[١]. وهذا الكتاب الذي صنّفه أمريكيان، تناول قضية الزي من عدة جوانب وفق الرؤىٰ والقيم الغربية. وفيه بحث حول تحسس الرجال في كل مجتمع إزاء أعضاء جسم المرأة (وأُعرب عن اعتذاري لكافة القراء ولا سيما الاخوات لترجمة هذا النموذج الذي يحمل عبارات لا تلتقي مع الأدب الإسلامي، لاضطراري الىٰ ازاحة النقاب عن نتانة الحضارة الغربية وهبوط مكانة المرأة فيها). ونقل الكتاب بعد ذلك البحث ولتأييد ما ذهب اليه دعاية خاصة باحدى الشركات الصناعية وتدعىٰ «برلينغتون»، وهي شركة للأزياء وأنواع الجوارب النسائية. والجزء الاكبر من هذه الدعاية يتألف من ثلاث صور منفصلة (نعتذر عن

---

١ ـ The Visible self: Persepective on Dress، ص ١١٧.

نقلها)، إحداها صورة لرقبة نسوية عارية وكُتب تحتها «اليابانيّون»، والاخرىٰ صدر بارز لامرأة ترتدي قميصاً وكُتب تحتها «الفرنسيون»، والصورة الثالثة والتي هي بحجم الصورتين السابقتين لأقدام عارية لإحدى النساء وكُتب تحتها «الأمريكيون». ثمّ كُتبت العبارات التالية بحروف كبيرة وصغيرة وببراعة فائقة تحت هذه الصور الثلاث:

ما نريد أنْ نقوله للنساء حول الرجال هو:
يختلف الرجال عن بعضهم في مختلف بقاع العالم.
والشيء الذي يؤثر في الرجل الامريكي هو «القدم»
وبرلينغتون هي الوحيدة التي تعرف «القدم».
لأننا ننتج اكثر الجوارب السروالية جنسية في العالم.
ستسمعون كلامنا لمدة عشرة أسابيع كاملة في أماكن مهمة.
ربيعنا في «ردبوك»، وفي مجلة الأزياء ملحق نيويورك تايمز، وفي قنوات التلفزيون العامة والمحلية.
فانتهزوا الفرصة.
وادّخروا المال لشراء جواربنا.
وبالنهاية أنتم أكثر حاجة الىٰ هذه الجوارب السروالية من أية امرأة أمريكية.

وهذا النموذج واحد من النماذج التي لا تحصى والتي تملأ الغرب. وما يجب أنْ تعرفه المرأة هو أنّ بامكانها أن تجذب الرجل الياباني بالعنق، والفرنسي بالصدر، والامريكي بالقدمين (علم النفس في

خدمة الجنس)، وانّ الشركة الفلانية تنتج اكثر الجوارب السروالية إثارة للجنس (الجنس في خدمة الرأسمال)، وعشرة أسابيع كاملة في الاذاعة والتلفزيون والمجلات... (وسائل الاعلام في خدمة الرأسمال).

وهذا ما نخشىٰ منه ونعارضه. فنحن نرفض أن تُحتقر المرأة ويُهبَط بها الىٰ مستوى «السيجار» و«الحذاء» وغيرهما من البضائع. وهذا هو المصير الذي فُرِض على المرأة باسم الحرية والمساواة. وحينما يصل الأمر الىٰ هذا الحد ويختفي الحديث عن المرأة ككائن ذي شخصية وهوية، ويقتصر الحديث عن أعضاء جسمها، ومفاتنها، وجنسية عنقها وصدرها وقدمها، وكأنهم يتحدثون عن طعم لحم رقبة الخروف وكتفه وفخذه، فانهم يوجهون بذلك صفعة حادة وقاسية الى المرأة. والمرأة التي كانت تواجه الجنس المخالف من موقع القوة والدلال، نراها تعرض نفسها في هذا اليوم من موقع الضعف والحاجة. وقد تحطّم في هذا اليوم ايضاً الغرور النسوي الذي هو جزء لا يتجزأ من انوثتها، ولم يعد اي اثر لعزة نفسها وكرامتها اللتين جعلتا منها كائناً «محبوباً» و«معشوقاً».

والعجيب، انه كلما جرى الحديث عن الزي الإسلامي والبساطة الإسلامية، إرتفعت أصوات الاحتجاج من قبل المعارضين الذين هم في الغالب إما مبهورون غير واعين بالغرب او عملاء للرأسمالية الاستهلاكية، ووجّهوا الانتقادات اللاذعة قائلين: نعم، انتم تهدفون الىٰ حرمان المرأة من الانطلاق الفاعل في المجتمع، وزجّها في سجن

البيت، ولم تتعاملوا بجدّ مع شخصية المرأة، وأقصيتم نصف نفوس البلاد عن ميدان العمل الاجتماعي.

وللإجابة علىٰ مثل هذه الاتهامات، لابد من القول: كما كان الفكر الإسلامي ينظر الى المرأة كانسان يجب عليه الانطلاق الى المجتمع بشكل جاد، فلابد لها في هذه الحالة من الاقلاع عن التجمّل والتبرّج. وكلما كان تواجد المرأة في مجتمع ما اكثر ميلاً نحو اللهو، كلما أصبحت هذه المرأة اكثر عرياً وتبرجاً. ومن شروط الحياة الاجتماعية أن يتقلص اهتمام الفرد بنفسه، ويغرق كالقطرة في بحر المجتمع. ولابد حين الدخول الى المجتمع من اختفاء الـ «أنا»، وظهور «نحن». ولو سعىٰ كل رجل او امرأة ومن خلال الاهتمام بالزي والشكل والمظهر، أنْ يستقطب الانظار نحوه وبالتالي نحو الـ «انا»، فهذا يعني انهما لا يريدان الانضمام الى المجتمع ولا المساهمة في همومه التي هي همومهما أيضاً. تذكّروا الحج! فتحت ظل أشعة شمس الحقيقة الالهية لابد للـ «انا» أنْ تتخلى عن انيّتها، وتتحول الىٰ «نحن». ولهذا السبب بالذات كان على الجميع ان يرتدوا زي الإحرام، وهو لباس بسيط للغاية ومتشابه. وعلى النساء والرجال في الحج الاحتراز من الزينة والتجمّل، والمساهمة متّحدين في بناء مجتمع نموذجي. ونرى انّ الزي يقتطع الفرد عن المجتمع بمقدار ما يميزه عنه.

وكل هذا التنوع والتفنن في زي المرأة الغربية والمتغربة وتبرجها، ناجم بشكل دقيق عن انها لم تلج المجتمع الغربي بصورة جادة، وانما

كشيء كمالي، يحتل دائماً الاماكن الهامشية. وهذا يعني إنّ ما يُعدّ مؤثراً على حرية هذا النوع من النساء وحضورهنّ الجادّ والمؤثر في المجتمع، انما هو دليل علىٰ انّ المجتمع لم يستخدمهن بشكل جاد، وانما قد اتخذ منهنّ أُلعوبة. ففي مجتمعنا هذا، قفوا يوماً مقابل مبنىٰ إحدى الدوائر ـ من هذا النوع الذي لا زال حتى الآن ولا يجب أن يبقىٰ بعد الآن ـ وانظروا الى التبرج والزينة التي عليها الموظفات والموظفون[1]، ثمّ قفوا يوماً آخر مقابل احد المصانع وانظروا الى العاملات والعمال الذين دخلوا الى المجتمع بشكل جاد، فما هو الاختلاف الذي ستجدونه؟ فحينما لا يكون العمل جاداً، يبرز التبرج والتجمل والزينة، ويفكر كل واحد في هندامه وشكله. وحينما يكون الحديث عن العمل والانتاج، تختار النساء والرجال الهندام البسيط ويقل لديهما الاهتمام بالتنميق والتزويق. ولا يقتصر هذا التباين على الدائرة والمصنع، وانما ينسحب علىٰ كل موقعين احدهما غير جاد أو لهوي، والآخر جاد كالمدرسة والمستشفىٰ والمعسكر والمزرعة، فيسعى الرجال والنساء في الأول الىٰ ذوبان المجتمع فيهم من خلال التنمق واستقطاب الانظار، وفي الثاني الى الذوبان في المجتمع من خلال البساطة وعدم التنمق. وكلما كان المجتمع اكثر جدية، كانت المرأة اكثر تستراً. ولهذا تريد الجمهورية الإسلامية للمرأة الزي البسيط المتواضع، لأنها تريد لها أن تدخل الميدان الاجتماعي لله

١ ـ يعود هذا الكلام لعام ١٩٨٠، اي عام صدور الطبعة الاولىٰ من الكتاب. ومن الطبيعي ان تطورات ايجابية كثيرة قد طرأت على المجتمع خلال هذه الفترة.

ولخدمة عباد الله، لا من أجل نزوات الرجال.

والدليل الآخر علىٰ انّ زي أفراد المجتمع ولاسيما النساء لا يمكن أن يكون بأي شكل وحجم كان ولابد من وجود قواعد خاصة بهذا الشأن، هو أنّ التحلل في اللباس وعدم الانضباط فيه، لابد وأن يؤدي في النهاية الى التحلل الخلقي وإثارة الغريزة الجنسية. وأثبتت الدراسات العلمية في الفسلجة وعلم النفس وعلىٰ صعيد التباين الجسمي والنفسي بين المرأة والرجل ان الرجل اكثر تحسساً من المرأة بعوامل الاثارة الجنسية المنتقلة عن طريق العين، على العكس من المرأة التي تبدي استجابة جنسية اكبر نحو المؤثرات اللمسية:

«عتبة حاسة اللمس والألم عند المرأة أقصر من الرجل منذ ولادتها، أي انّ المرأة اكثر تحسساً للألم واللمس. كما ان حاسة السمع لديها أفضل من الرجل في كافة الأعمار... في حين حاسة البصر عند الرجل أفضل. وهذه المواصفات الجنسية في الاستعداد الحسي، ليست تعلمية أو اكتسابية وانما تظهر منذ الطفولة... الذكور البالغون يبدون تحسساً اكبر نحو المؤثرات الجنسية المنتقلة عن طريق العين. وتلاحظ نقطة الضعف هذه عند الرجل بشكل واضح خلال حياته اليومية، وتنعكس على اهتماماته بصور مختلفة كاقتنائه للصور والمجلات والأفلام الجنسية. وتبدي المرأة تأثراً أكبر بعوامل الاثارة اللمسية. وهذا التباين في التأثّر والتحسس يتبلور منذ البداية بتأثير الاندروجينات. ومصطلح «شرِه العين» الذي يُطلق على هذا النوع من الرجال، إنما هو وليد تأثر الرجال بعوامل الاثارة البصرية.

ونظراً للمدى البصري البعيد ـ اي قدرة العين على التأثر بالمؤثرات من مسافة بعيدة نسبياً وسعة المحيط الذي تراه في آن واحد ـ وتماثل ترشح الاندروجينات وعجز أي عامل طبيعي عن قطعه، يقع الرجال بشكل واسع تحت تأثير العوامل المثيرة للشهوة، وهم لهذا السبب اكثر نشاطاً في هذا المضمار. وعلىٰ صعيد آخر، لما كانت حاسة اللمس ذات مدىٰ قصير، ويقتصر نشاطها على التماسّ القريب، والهرمونات الجنسية عند المرأة تترشح بشكل متناوب وليس بصورة دائمية، لهذا يكون تأثير عوامل الاثارة عند المرأة محدوداً للغاية، ونشاطها في هذا المضمار قليلاً جداً...»[1].

وقد يلاحظ احياناً وعند الحديث عن الزي الإسلامي، انطلاق بعض أخواتنا للمقارنة بين الزي النسائي والرجالي واثارة بعض التساؤلات في هذا المجال مثل: لماذا لم يُلزَم الرجل بستر شعر الرأس أو العنق، في حين أُلزمت المرأة بهذا؟ وللإجابة نقول: أولاً وكما أشرنا من قبل انّ الكثير من الألبسة التي يرتديها الرجال في هذا اليوم تتعارض مع روح الثقافة الإسلامية نظراً لكونها شفّافة وملتصقة بالجسم، وهي بالتالي ليست اسلامية. ومن العدل أنْ يتغير زيّ رجالنا أيضاً الىٰ زيّ مُسْتَلْهَم من الأدب الإسلامي والمعنوية الإسلامية، وأنْ يخرج من شكله التقليدي الغربي. غير انّ الدراسات والتجارب العلمية أثبتت انّ المرأة لا تُثار عند مشاهدة الرجل بالمستوى الذي

---

١ ـ نقلاً عن مقال «التفاوت بين المرأة والرجل من منظار الفسلجة وعلم النفس» للدكتور محمود بهزاد، مجلة نكين، العدد ١٣٤، ١٩٧٦، ص ٢٤.

يُثار فيه الرجل عند مشاهدته لجسم المرأة ومـفاتنها. وبـرهن عـلم النفس الجنسي انّ كافة جسم المرأة مثير للرجل، بينما لا يصدق هذا الأمر على الرجل[١]. وهذا النوع من التباين يملي تحديد نظر الرجل ولباس المرأة.

ونعود الىٰ حديثنا حيث قلنا بأنّ عدم الالتزام بـالزي واللـباس، يعني عدم قبول أية قاعدة لتنظيم الغريزة الجنسية، واذا لم تكن في مجتمع ما قاعدة تنظم هذه الغريزة، أو حدود تحددها، فهذا يعني عدم وجود أية قاعدة وحـدود فـي العـلاقات الجـنسية بـين أفـراد ذلك المجتمع، لأنّ الإثارة غير المنضبطة واللا منظَّمة تستدعي إشباعاً غير منضبط أو منظم للغريزة الجنسية، وهل هناك مجتمع يرضىٰ باشباع غير منظّم لهذه الغريزة؟ الا تكفي كل هذه التجارب التـي حـصلت طوال التاريخ وفي شتىٰ بقاع الارض، كي نعلم من خلالها انّ قضية الغريزة الجنسية لا يمكن علاجها عـن طـريق العـلاقات الجـنسية الفوضوية وغير الملتزمة؟ وبغض النظر عن المجتمع الانساني، فهل شوهد مجتمع حيواني، تجري فيه العلاقات الجنسية بشكل فوضوي ودون أنْ تقوم وفق نظام خاص بها؟ اليس لكل حيوان زوج محدّد ومعلوم؟ وهل عولجت المشكلة الجنسية فـي بـلدان كـالدانـمارك والسويد وسائر البـلدان الاسكـندنافية التـي تـتسم فـيها العـلاقات الجنسية بحرية أكبر؟ اليس عجيباً ان نرى ارتفاع نسبة الانتحار في هذه البلدان عن غيرها وهي التي من المفروض أنْ يَكون قد تحقق

١ـ The Psychology of Clothes، ص ١٠٧.

فيها الهدوء النفسي.

وحينما يُثار الحديث عن ضرورة وجود قاعدة تنظّم الغريزة الجنسية ووجوب تحديدها، ينبري البعض في بعض الأحيان قائلين بأنّ كافة المشاكل التي تعاني منها البلدان الإسلامية والشرقية، ناجمة عن تحديد الغريزة الجنسية. ولو رُفعت الحدود المفروضة بشكل كامل وأصبحت العلاقات الجنسية حرة، لانخفضت حدّة الشهوة والجشع الجنسي، واكتسبت الغريزة الجنسية حالة عادية. وللاجابة نقول: مرّ علىٰ هذه التجربة سنوات مديدة في البلدان الغربية، وخطت بعض البلدان خطوات واسعة علىٰ طريق حذف القيود والحياء علىٰ صعيد قضايا الجنس، فهل تمكّنت من علاج القضية الجنسية حقاً؟ هل هبطت حدّة الحمّى الجنسية في بلدان كبريطانيا، وألمانيا، والدانمارك، والسويد، وهي التي تضج بالمجلات الجنسية الخالية من الحياء، وتلك الأزياء المثيرة، وتلك الأفلام الداعرة، وكل ذلك العري والسفور والتبرج؟ وهل عولجت فيها مشكلة الغريزة؟ ومن يرىٰ هذا الرأي، لاشك انه لا يعرف الغريزة الجنسية، لأنها كالحصان الذي يتحرك بالسوط ويزداد عدواً مع تزايد السياط. وقد يجب السوط أحياناً، لكن اذا جرى ذلك بدون تروّ، وزادت السياط عن الحد، فسينفلت الحصان ولا يمكن السيطرة عليه.

منذ فترة طويلة والغرب يصبّ اهتمامه علىٰ كشف الاعضاء المثيرة للغريزة الجنسية من خلال الصور والأزياء، ورغم ذلك نجد تزايد استعار نار الغريزة الجنسية يوماً بعد آخر، وتزايد إقبال الناس

على الجنس، وارتفاعاً كبيراً في عدد ما يُطبَع من المجلات والكتب الجنسية، حتىٰ أصبحت التجارة في الحقل الجنسي من أربح التجارات. نعم هناك حقيقة اخرىٰ وهي: مع أيّ ستار يُزاح في الغرب عن الحياء والعفّة، ينكشف مظهر جديد من الجنس، غير انّ ذلك المظهر لا يحتفظ برونقه وجذابيته سوى أيام قلائل يتحول بعدها الىٰ شيء عادي. ولو انتهت المباراة عند هذا الحد، لعولجت القضية وانتهت، لكنها لا تنتهي، فما أنْ يصبح أي نوع من أنواع الإثارة عادياً بفعل التكرار، يبحث الإنسان عن إثارة جديدة أشّد. وأدرك تجّار سوق الإثارة هذه القضية بشكل جيد، ولهذا نراهم منهمكين دائماً في اختراع أساليب أحدث وأشد. وأحد الأخطاء الكبرى التي اقترفها أولئك الذين اقترحوا مثل هذه الفرضيات لعلاج مشكلة الغريزة الجنسية هو انهم افترضوا في عالم الخيال انّ الإنسان ليس لديه في المجتمع سوى الغريزة الجنسية. وهذا يعني انهم ارادوا حل هذه المعضلة بشكل منفصل عن سائر العوامل الاجتماعية الاخرى، في حين لا يمكن الاهتمام بها في عالم الواقع بعيداً عن القضايا الاقتصادية والدخول التي يحصل عليها الرأسماليون من جراء إثارة الغريزة الجنسية. والواقع انّ هذه الغريزة ليست لا تنطفئ بالإثارة فحسب، وانما لو افترضنا انّ شعلة هذه الحاجة تريد أنْ تنطفئ، فلن يسمح لها الرأسماليون وكافة المستفيدين مالياً عن طريقها بالانطفاء، ويسعون دائماً من خلال أحابيلهم الجديدة الىٰ إلهاب السوق والناس، وخلق مزيد من الظمأ للظامئين من خلال سقيهم الماء المالح.

والغريزة الجنسية من هذه الزاوية شبيهة بالإدمان. فقد يتصور البعض انّ سبب رغبة المدمنين في مواد كالافيون والهيروئين، يعود لكونها مواداً نادرة ولا تُستحصل إلّا بكميات قليلة. ولهذا ومن أجل استئصال جذور الادمان لابد من توفير الهيروئين بكميات كبيرة وتسهيل حصول المعتادين عليهما! وهذه الفرضية التي تبدو انها معقولة، تؤدي عند تطبيقها الىٰ فقدان هذه المادة المخدرة لمفعولها وتأثيرها على المدمن بسبب كثرة استعماله لها، وتصبح المقادير الكبيرة منها، أمراً عادياً لا يلبي حاجته. ولهذا يضطر لطلب مقادير اكبر كي يروي ظمأه، ثمّ الىٰ مقادير اكبر ايضاً بعد فترة وجيزة، وتستمر هذه العملية التصاعدية حتىٰ يفقد المدمن حياته.

ولو افترضا صحة هذا الكلام رغم اننا رأينا عدم صحته عملياً، ولو افترضنا علىٰ هذا الأساس وجود مجتمع قد اتخذ قراراً بالسماح لانواع الاثارات الجنسية وعدم وضع اي نوع من القيود على الافراد في ارتداء الأزياء، ولا على الصور في عرض المفاتن والأعضاء، ولا على السينمات في عرض العلاقات الجنسية، ولا على المسارح في عرض ما لا يجب أنْ يُعرض، ووُضِع كل شيء في خدمة الجنس، ومُشاهدة أفراد المجتمع للمناظر الجنسية في الصحف والمجلات والتلفزيون والسينما والأماكن العامة ليل نهار، وانهماك مختلف المعارض والأسواق في بيع المنتوجات الجنسية، وَتَحَدُّث الجميع وفي أيّ مكان عن الجنس، واستمرار هذا الاسلوب عسىٰ أنْ يكون علاجاً للمشكلة الجنسية؛ لو افترضنا انّ هذا هو الاسلوب الذي

يعالج هذه المشكلة حقاً، إلّا انه الاسلوب والعلاج الذي نخشاه نحن بشكل خاص. فمعنىٰ هذا العلاج هو: لو اردتم ان تُحلّ المشكلة الجنسية وتُعالَج، فتعالوا ودَعوا كل همومكم واهتماماتكم جانباً، وانسوا آلامكم وآلام الآخرين، وكرِّسوا كلّ ما لديكم من وقت وطاقة وإبداع لمشكلة الجنس كي تخرج عن كونها مشكلة. وكلامنا حينئذ سيكون هو: انّ اكبر المشاكل هي أنْ ينسى الإنسان كافة حقائق العالم الآخر وكافة مسؤولياته الاخرى من أجل حل المشكلة الجنسية، ويسعىٰ لإشباع غريزته من خلال مزيد من الاثارة لها. وهذا التصرّف يذكّرنا بالمثل الذي يقول: «إشحذْ كي لا تحتاج الى الناس!». نحن نرى أن الإنسان اكبر من أنْ لا يكون له همّ سوىٰ همّ الجسم والجنس. ونعتبر هذا النوع من العلاج ـ مع افتراض إمكانه ـ حطّاً لكرامة الإنسان وهبوطاً به. وهل هناك مشكلة اكبر لدى الإنسان أنْ لا تكون له قضية اخرىٰ غير الغريزة الجنسية؟ وسواء عولجت المشكلة الجنسية أم لم تعالج، لماذا يجب تقديم هذا الثمن الغالي لحل هذه المشكلة؟

وهناك قضية في غاية الدقة، كما انها أساسية جداً في نفس الوقت وهي ضرورة عدم دراسة الجنس، والزي، والعري، والقواعد المنظّمة لها علىٰ أساس مصالح الحياة الاجتماعية للفرد فحسب، كما لا يجب التفكير سوىٰ في عالم الفرد الخارجي والمجتمع المحيط به، بل يجب الاهتمام بالشعور بالحياء كخصلة ذاتية وباطنية للفرد ـ فالحياء إحدى الصفات الخاصة بالإنسان ـ، والإنسان هو الحيوان الوحيد

الذي يصر علىٰ ستر بعض أعضائه على الأقـل. واذا كـان النـطق، والمنطق، والضمير، من بين الاشياء التي يختلف بـها الإنســان عــن الحيوان والتي تعدّ «كمالاً» له ومُثُلاً تمنحه الاعتبار والقيمة، فلماذا لا يُعدّ «الشعور بالخجل» والهروب من العـري ـ وهـي مـيزة خـاصة بالإنسان ايضاً ـ كمالاً كذلك؟ والحقيقة هي أن علينا أنْ لا ننسىٰ في قضية الغريزة الجنسية والعـري او السـتر، عـالماً عـظيماً مـحفوفاً بالأسرار، الا وهو عالم «ذات» الإنسان. ويتحدث البروفسور اسوالد شوارتز ـ وهو طبيب وعالم نفسي نمساوي ـ عن هذه النـقطة فـي كتاب «علم النفس الجنسي» قائلاً:

«فضلاً عن الانثروبولوجيا، أثبت علم النـفس ايـضاً انّ الشـعور بالحياء صفةٌ من الصفات الرئيسة التي يتّسم بها النوع الإنساني. ولا تُعرف قبيلة إبتدائية ـ مهما كانت بدويتها ـ لم تُظهِر الحياء. وحـتى الأطفال الصغار يشعرون بالحياء ايضاً. وتزداد المواضيع التي تخضع لحماية الحياء بازدياد مرحلة النضج البشـري وكـذلك خـلال نـمو الافراد، والحماية هي مهمة خاصة ملقاة علىٰ عاتق الحياء...

ومن الواضح بشكل كـامل انّ الحـياء يـحمي أعـضاء التـناسل ووظائفها قبل اي شيء آخر، لا من أجل ما لديها في الاصطلاحات التشريحية والفسلجية، وانما من أجل ما وراءها، أي من أجل سـرّ الجنس... فكثير من الآباء والامهات لديهم اعتداد بالنفس علىٰ سبيل المثال ويتلذذون حينما يُفضي لهم اولادهم الكبار بأسرارهم. انهم لا يعلمون بأنّ أحد أسرار الكبر أنْ يكون للإنسان شـيء خـاص بـه

ويسعىٰ لحمايته والاحتفاظ به، وان يكون لديه سرّ في ضميره، أطلقَ عليه بودلر اصطلاح «البستان الخفي». والحياء حارس ذلك السر...

والتبجح بالتقدمية والحداثة، خرقة علىٰ جسم الجهل بالقيم الأساسية. والحياء هو الضحية الاولىٰ لهذا الضلال الاخلاقي. وحركة الايمان بالعُري، نموذج رهيب من نماذج هذا التبجح، ويجب ان تكون كذلك.

الحياء بحاجة الىٰ حماية من أجل حفظ أدق قواعد الطبيعة الإنسانية لا وضعيات التمدن. والحياء يحمي بعد الجنس ـ الذي هو أصل ونواة ـ شخصيتنا بأسرها، ليس في شكلها المنحط كالغرور، وانما في «ادراك انفسنا» بالمعنى الصحيح»(١).

الأُسرة

عدم الالتزام والتحلل في الزي بمثابة تحلل في الإثارة. والتحلل في الإثارة يؤدي ولاشك الىٰ تقويض أساس الأُسرة. والغريزة الجنسية أحد أهم عوامل الزواج، في حين يتضاءل دورها في الحفاظ على كيان الاسرة كلما تقادم الزواج، ويحل دور الحب، والتفاهم، والوفاء بدلاً من دورها. ويجب أن نقول هنا بأنّ العري، وتجسيم المفاتن، يعدّ آفة تهدد الحياة الاسرية. وبعبارة اخرى التبرج يؤدي الىٰ جفاف جذور شجرة الاسرة. ولهذا يسعى ليس الإسلام فحسب، وانما كافة المدارس الاجتماعية في العالم الىٰ حفظ صرح

---

١ ـ علم النفس الجنسي، ص ٧٠ ـ ٧١.

الاسرة شامخاً ومحترماً، وأنْ يكون كل مـن الرجـل والمـرأة وفـياً أحدهما للآخر، كي ينجحا معاً في إنشاء وكر آمن وممتع لأبنائهما، ويمكنهما ـ من خلال تربيتهم ـ رسم مستقبل المجتمع الذي يعيشون فيه. اما في المجتمع الذي يهيمن عليه العري فنجد المـرأة والرجـل يخوضان حالة من المقارنة، أي انْ يقارن كل منهما ما عنده بما عند الآخر. وإنّ ما يحرق جذور شجرة الاسرة هو هذه المقارنة، لأنـها تشعل فتيل النزوة عند المرأة والرجل، ولاسيما الرجل. فالمرأة التي عاشت عشرين أو ثلاثين عاماً الىٰ جانب زوجـها وصـارعت مـعه مشاكل الحياة وأعباءها، وشاركته سرّاءها وضرّاءها، من الطبيعي أنْ تغرب شمس ربيعها شيئاً فشيئاً ويحلّ محلها الخريف. وفي مثل هذا الوضع الذي تزداد فيه حاجتها الىٰ حب الزوج وحنانه ووفائه، تحلّ فجأة امرأة اخـرىٰ شـابة، تـنطلق فـي الزقـاق والسـوق والدائـرة والمدرسة بدون لباس مـناسب، وتـمنح زوجـها فـرصةً للـمقارنة، ويُصبح ذلك مقدمة لتقويض صرح الاسرة من الأساس، وتبديد آمال امرأة بددت شبابها. والأخـوات الشـابات يـدركن ولاشك أنْ ليس هناك شابة لا تبلغ مرحلة الكهولة والشيخوخة، كما يعلمن انهن إذا كنّ اليوم في حالة الشباب ونضارة الوجه، ففي الغد وحينما تذبل تلك النضارة، هناك شابّات ايضاً بامكانهن أن يـتحولن الىٰ خـطر عـلىٰ اسرهن المستقبلية مثلما هنّ اليوم خطر على الأسر.

لقد ثبت بالتجربة انّ أي مجتمع ليس بامكانه أن يبقىٰ بدون أُسرة. والأسرة تحظىٰ في الإسلام بأهمية كبيرة. ويُسـتشفّ مـن مـجموع

المعارف الإسلامية انها تؤدي الدور الاكبر في تربية الإنسان وتكامله من بين كافة المؤسسات الاجتماعية. وأهمية الاسرة وآثارها، بحاجة الىٰ دراسة مستقلّة[1]. والمجتمع لا يستقيم بدون الاسرة. ولم ينجح أي من الفلاسفة وعلماء الاجتماع ـ الذين أباحوا الاتصال الجنسي الاشتراكي وأرادوه أن يحل محل الاسرة ـ في تطبيق فكرتهم هذه ولو لفترة قصيرة. واذا كان النموذج الافلاطوني بعيداً عنا، فالنموذج الماركسي قابل للمشاهدة والدراسة. كان الماركسيون يحاولون علاج المشكلة الجنسية عن طريق الاشتراكية في العلاقات الجنسية. وكانوا يؤمنون (ولابد أن يظلوا علىٰ هذا الايمان طبقاً لمبادئهم) بأنّ الشكل الشرقي للأسرة، انما هو نتاج الاقطاعية والبرجوازية، كما ان تحديد العلاقة بين الرجل والمرأة، ناجم عن «الملكية الخاصة» وبنية فوقية لها، وأن الاسرة الخاصة ستنتهي بافول عهد الملكية الخاصة.

ويقول إنجلز في كتاب «نشوء الاسرة والملكية والدولة»:

«الشرط الاول لتحرر المرأة، هو مساهمة كافة الجنس الانثوي في الصناعات العامة، ويقتضي هذا الشرط إلغاء الاسرة الفردية كوحدة اقتصادية اجتماعية»[2].

كما يقول:

---

١ ـ للكاتب مقال آخر عنوانه «أهمية الاسرة في التربية الدينية للأبناء»، بحث فيه بعض الجوانب المتصلة بالاسرة.

٢ ـ ماركس والماركسية، ص ١٠٢.

«الاقتصاد المنزلي الخاص يتحول الى الاقتصاد الاجتماعي، ورعاية الاطفال وتربيتهم الىٰ أمر عام. والمجتمع سيرعى الاطفال الشرعيين وغير الشرعيين دون تمييز»[1].

وعلينا ان نرى المصير الذي آلت اليه هذه الافكار عند التطبيق. فبعد الثورة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، أُلغيت بعض القواعد والقوانين المتصلة بنظام الاسرة، مما ادّى الىٰ تصاعد حدة الفوضى الناجمة عن ذلك، وتهديد أساس الثورة الشيوعية حتىٰ «بلغت أرقام الطلاق ما يقرب من نصف أرقام الزواج (٤٤ ٪) في عام ١٩٣٥، وتزايدت حالات الإجهاض بحيث لم يعد هناك مكان في المستشفيات، كما أدى ازدياد عدد الاطفال غير الشرعيين الى ازدياد مستوى الفساد والانحراف بين الشباب... وكتب مفوّض العدل الشعبي في صحيفة ايزفستيا: تخلى آباء مئات الوف الأطفال عن دعم هؤلاء الاطفال رغم المهام التي أوكلتها المحاكم اليهم»[2]، وتفاقمت الأوضاع مما أدى الىٰ وضع بعض القوانين خلال الفترة ١٩٤٤ ـ ١٩٤٩ والتي حدث بموجبها:

«الغاء زواج دخاكتو (أي الزواج الحر غير الرسمي)، وأصبح الطلاق أكثر تعقيداً حتىٰ من البلدان الغربية، وحظيت الأسرة بالدعم ليس من خلال المساعدات المادية فحسب، وانما عن طريق الافتخار بها وتقديرها أيضاً، مثل إضفاء الألقاب وتقديم الأوسمة للـ

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

«امهات البطلات»...»[1].

هذه تجربة ملموسة أثبتت انّ العلاقة الجنسية بحاجة الىٰ نظام وقاعدة واصول. واذا كان الامر كذلك، فلابد ايضاً من وجود نظام وقاعدة واصول تسيّر الاثارة الجنسية. وليست الحدود التي وضعها الإسلام للباس والزي النسوي والرجالي سوىٰ جزء من هذه القواعد والاصول. وليس هناك شيء اكثر منطقية من القول: من الظلم إثارة الغريزة في المواضع التي لا إمكان فيها لإشباعها، ولابد من منع مثل هذه الاثارة. فاذا لم يكن بامكاننا أنْ نقدم للجائع أنواع الأغذية، فلماذا نثير شهيته من خلال الروائح المتصاعدة عن الأطعمة المشهّية. فهل يُعدّ مثل هذا التوقع في غير محله، ومثل هذا الكلام غير منطقي؟

والآن وقد تحدثنا عن الأسرة خلال حديثنا عن اللباس، من غير الانصاف أنْ لا نذكّر بأنّ القرآن قد شبّه الزوج والزوجة في الاسرة بأنّ كلاً منهما لباس للآخر: ﴿هُنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ﴾ (سورة البقرة، الآية ١٨٧)، نعم فالزوجة لباس الزوج، والزوج لباس الزوجة. ولو أمعنّا النظر في هذا التشبيه لوجدناه في غاية الجمال وعظيم المعنىٰ. فاللباس أقرب شيء الىٰ جسم الإنسان، كما انه وفي نفس الوقت يستر الجسم عن الآخرين ويبعده عنهم. والعلاقة بين الزوجة والزوج بهذا الشكل أيضاً؛ فأحدهما قريب من الآخر، كما انّ كلاً منهما يحفظ عفّة الآخر وشرفه، كما هو الحال في اللباس الذي

١ـ المصدر السابق.

يقي الإنسان من العري والتحلل الخلقي[1]. هذا فضلاً عن انّ اللباس لما كان مدعاة لوقار الفرد وزينته، كذلك الزوج او الزوجة مدعاة لوقار الآخر وزينته في الحياة الاجتماعية. ومثلما يمكن عن طريق شكل اللباس ونوعه الوقوف على الكثير من جوانب شخصية الفرد، كذلك يمكن عن طريق معرفة طبيعة الزوج او الزوجة الوقوف علىٰ شخصية الآخر. والتباين بين الزوج والزوجة في إطار الاسرة، وبين الرجل والمرأة اللذين علىٰ علاقة جنسية في المجتمع المتحلل، هو أنّ الزوج والزوجة يسلك كل منهما سلوك اللباس للآخر حسب التمثيل القرآني، كما أنّ كلاً منهما مدعاة لعفاف الآخر وستره، في حين انّ الاثنين الآخرين يعمل احدهما علىٰ عُري الآخر وتحلله وفساده، أي يعمل كل منهما للآخر عكس ما يعمله اللباس.

الكلمة الأخيرة

للكاتب القصصي كريستيان اندرسن قصة شهيرة مفادها أنّ خياطَين دخلا الىٰ مدينة ما وخدعا اهلها بأنهما بارعان في الخياطة، ويخيطان أَنْفَس الحلل التي تليق بالشخصيات العظيمة. غير انّ روعة ما لديهما من فنّ تتجلى في قدرتهما علىٰ خياطة حلّة للعاهل لا يمكن أنْ يراها إلّا من كان شرعي المولد، وليس بامكان إبن الحرام أنْ يراها. ووافق العاهل علىٰ خياطة حلّة له بهذه المواصفات وأعرب

---

١ ـ تفسير الميزان، تأليف الاستاذ العلامة الطباطبائي في تفسير الآية ١٨٧ من سورة البقرة.

عن سروره لذلك، وأمر أنْ توضَع مقادير كبيرة من الذهب والفضة تحت اختيارهما، كي يخيطا له تلك الحلّة السحرية التي سداها من الذهب ولحمتها من الفضة.

واستلم الخياطان المال والذهب والفضة، واتخذا معملاً للخياطة وشرعا في استخدام المغزل والدولاب والمقص والابرة، وأخذا يحركان أيديهما بصورة ماهرة في الهواء دون أنْ يستخدما أي قماش أو شريط من الذهب والفضة، إيهاماً للعيون بأنهما منهمكان في خياطة حلة العاهل. وبعث العاهل وزيره يوماً لرؤية بدلته التي لم تكمل بعد. وكلما نظر الوزير لم يشاهد شيئاً. إلّا انه طفق في الاطراء على الحلة والاشادة ببراعة الخياطين خوفاً من أن يُتّهم بلا شرعية المولد. ورفع تقريراً الى العاهل يخبره فيه بحسن سير العمل. وتقاطر كبار رجال الدولة على معمل الخياطة إلّا انهم جميعاً أخفوا الحقيقة المرة التي شاهدوها عن كثب خوفاً من ذلك الاتهام الرهيب وأخذوا يتسابقون في رفع التقارير الى العاهل مُشِيدين فيها بحلّته الجديدة.

وحلّ دور العاهل نفسه في نهاية المطاف وانطلق نحو معمل الخياطة الملكي كي يرتدي حلته الذهبية السحرية، ولم يبصر هو الآخر شيئاً إلّا انه قال في نفسه: يبدو انني ابن الحرام الوحيد بين كل هؤلاء الناس! واضطر في غاية التردد والقلق الى الاذعان بوجود مثل تلك الحلة وجمالها وروعتها، ووقف امام المرآة كي يرتديها! وأقبل الخياطان الماكران علىٰ إلباس العاهل حلّته ووضع اللمسات الأخيرة عليها. ووقف العاهل المسكين عارياً دون أنْ يجرؤ على النطق

بالحقيقة، وانما قسر نفسه كي يعرب عن سروره لمثل تلك الحلّة.

وتقرر أنْ يُقام حفل عظيم في المدينة كي يرتدي العاهل حلته الجديدة ويراه الشعب فيها، واصطف الناس علىٰ جانبي الشارع، ومرّ موكب العاهل العاري وقد بدا عليه الوقار والسكينة، في حين كان يمسك إثنان من حاشيته بأذيال حلته الوهمية كي لا تتّسخ، فيما كان يسير خلفه رجال البلاط والامراء والوزراء وهم في غاية الاحترام والحيرة والإشادة. وطفق الناس في الإعلان عن سرورهم لرؤية العاهل في حلته الجديدة وتهنئته بها، رغم انهم لم يشاهدوا أي ثوب علىٰ جسمه، خوفاً من نفس الاتهام.

وانطلق فجأة صوت طفل يصرخ: «إنه عارٍ، اين ثوبه؟»، وكلما حاولت امه المسكينة أنْ تسكته، إلّا انها لم تنجح، وانطلق ثانية ليقول «لماذا العاهل عار؟». وانضم صوت طفل او طفلين اليه ايضاً، وأخذ الناس يتهامسون فيما بينهم بما قاله هؤلاء الأطفال، ولم يمر وقت طويل حتىٰ صرخ الجميع: «لماذا العاهل عارٍ؟» ولماذا... ولماذا...

* * *

والحضارة الغربية في هذا اليوم تحاول أن توهم العيون بأنها تخيط حلّة للإنسان، لكنها وبدلاً من أن تُلبسه، تخلع ملابسه عنه، ولا يجرؤ أي أحد أنْ يصرخ: ليس هناك لباس قط، وانّ ثمرة كل هذه التصاميم والأقمشة والضوضاء ليس سوىٰ عُري الإنسان. فالجميع يخشىٰ أنْ يتهمه الخياطون المحتالون الذين أخذوا ويأخذون الذهب والفضة بدنس المولد وخبث النسب. فهل يوجد في هذا العالم الذي

خضع للإعلام الغربي وانجذب اليه، من لديه قلب بنقاء ذلك الطفل كي يصرخ انّ ما يوضَع علىٰ جسم الإنسان في الغرب باسم اللباس، ليس لباساً وانما عُري؟ وهل يوجد مِن الناس مَن لديه صدق الأطفال كي تكون لديه الجرأة لإطلاق صرخة الحقيقة أمام ذلك العالم الذي يتصور العري لباساً وزياً؟

ولماذا لا نكون اولئك الناس؟

المصادر

١ ـ الموسوي، الخميني، آية الله العظمىٰ روح الله، كشف الأسرار.
٢ ـ المطهري، مرتضى، قضية الحجاب.
٣ ـ المطهري، مرتضىٰ، الاخلاق الجنسية في الإسلام والعالم الغربي.
٤ ـ شوارتز، اسوالد، علم النفس الجنسي، دار نشر سبهر، ١٩٦٨.
٥ ـ الكليني، الرازي، الفروع من الكافي، الجزء السادس، دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٩ هـ.
٦ ـ ذري، ر. ب. آ. ثقافة الزي الإسلامي، ترجمة حسين علي الهروي، جامعة طهران، ١٩٦٦.
٧ ـ ضياء بور جليل، الزي الايراني القديم منذ اقدم الازمان وحتىٰ نهاية الامبراطورية الساسانية، إصدار الفنون الجميلة للبلاد، ١٩٦٤.
٨ ـ بيتر آندريه، ماركس والماركسية، ترجمة شجاع الدين ضيائيان، جامعة طهران، ١٩٧٣.

٩ ـ كامو، البير، الغريب، ترجمة جلال آل احمد وعلي اصغر خبرزاده، دار المعرفة للنشر، ط ٤، ١٩٦٦.

١٠ ـ الصدر، حسن، حقوق المرأة في الإسلام واوربا، دار نشر مؤسسة كتب الجيب، ط ٣، ١٩٦٣.

١١ ـ العلامة الطباطبائي، السيد محمد حسين، تفسير الميزان.

12 - Bruhn Wolfgang and Tilke' Max. A Pictorial History of Costume' London: 2 wemmer Ltd. 1955.

13 - Parsons' F. A. The Psychology of Dress. Detroit: Gale Research Com. Detroit' 1975.

14 - Flugel' J. C. The Psychology of Clothes' New york: International Universities Press.
1971.

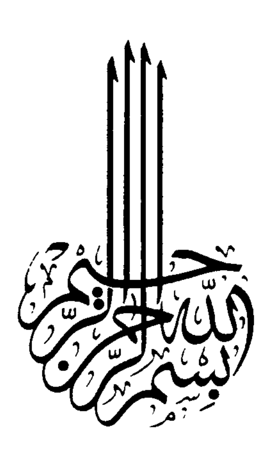
15 - Roach' M.E. and Eicher' J. B. Dress' Adornment' And the Social Order. John Wiley and sons Inc. 1965.

16 - Bradshaw' Angela. World Costumes. London: Adam and Chalmers Black' 1965.

17 - Roach' M. E. and Eicher' J. B. The Visible Self' Perspectives on Dress. Prentice - Hall' Ins' 1973.

18 - Boucher' Francois. Histoire du costume. Flammarion' 1965

الفهرس


بسم الله الرحمن الرحيم